مغارة السعلوة

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: مغارة السعلوة
وقصص أخرى
تأليف: عبدالرحمن هويش
الطبعة الأولى: ٢٠١١م
تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين

طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٠٠٩٦٣-٩٤٤٦٢٨٥٧٠
Email: akramaleshi@gmail.com

عبدالرحمن هويش

مغارة السعلوة

وقصص أخرى

الإهداء

إلى روح والدي.....

الذي تحمّل كثيراً لأكون.....

* عبدالرحمن

رسالة المجهول

ساهما كعادته، يتابع برامج التلفاز ويفضل منها ما يصور حياة الحيوان في الطبيعة وصراعها من اجل البقاء... جل اهتمامه العناية بعائلته وتوفير ما تحتاجه، زوجته وابنته.

(يا مرسال المراسيل عالضيعة القريبة...

خذلي بدربك هالمنديل واعطيه لحبيبي...)

صدحت فيروز بصوتها العذب من هاتفه الجوال لتعلن استلامه رسالة جديدة... تناول جواله وفتح الرسالة :

كل مابيك يعجبني أترجاك جاوبني

روحي بَدونك تموت حتى النوم حاربني

كانت رسالة من رقم هاتف غير مسجل عنده، مما يعني انه لا يعرفه، رفع رأسه ليتأكد من عدم انتباه زوجته المشغولة بكي ملابسه.

- قد تكون من احدهم يريد قضاء الوقت...، قال لنفسه

- أو قد تكون جاءتني بالخطأ.

شغلت هذه الرسالة تفكيره... سيطرت على حواسه، حاول نسيانها ولم يفلح.

- لابد لي من مسحها ونسيانها... إنها تلهيني عن كل شيء و تشتت أفكاري.
- لأتركها الآن وارى إن وصلتني غيرها من نفس الرقم.. أو عسى صاحبها يتصل.

مرت الساعات ولم تصل رسالة أخرى، وهاتفه صامتاً لا يرن جرسه وكأنه تلقى ضربته القاضية.

- لأتصل برقم المرسل وارى من هو صاحب الرسالة... أو أرسل رسالة لصاحبها أستعلمه اسمه وجهة رسالته.

كتب:

(رجاءا منو أنت... وإلمن أرسلت رسالتك)..

ضغط على (إرسال) بعد تردد... أحس بتوتر وخوف... ترقب صوت فيروز... انتظر... أحس بطول الوقت.. جفل:

(يامرسال المراسيل عالضيعة القريبة..

جاءه صوت فيروز معلنا رجوع الجواب... ضغط (قراءة) قبل أن تكمل فيروز مقطع أغنيتها :

روحي وياك تطير من تمر يمي...

يا أغلى من كل الناس...أحسك أغلى من أمي..

نظر يميناً وشمالاً ليتأكد من عدم قراءة غيره للرسالة... احتار في ما يفعل... لقد أخذت هذه الرسائل منه تفكيره... ماذا يفعل وبماذا يجيب.

استمرت فيروز تصدح بأغنيتها كل حين... بدأ يرد على ما يصله من رسائل بما يتناسب وما تحويه من كلمات حب ودلع ووله وغرام.

- يارِجّال شوكت تترك هالموبايل... نريد نسمع صوتك... خاطبته زوجته بعد أن عيل صبرها، ثم أردفت
- شنو اللي غيرك ... ومنو... هو هذا موبايل لو خراب بيوت.

لم يعد يهتم لكلام زوجته... صار له عالمه الخاص الذي لا يتعدى هاتفه الجوال... زوجته تطالبه أن يتواجد معهم ويكون حاضرا بينهم، فهي مرة تشاكسه وتتشاجر معه مرات وهو مشغول في كلمات مراسِلته العذبة وشكلها الأخاذ، فمرة يراها طويلة سمراء ومرة رشيقة شقراء... هي لا ترتدي الثياب وجسمها فتان ببنطلونها الجينز و قميصها الكتان.. جسمها ممشوق وخصرها دقيق... وشعرها كالليل اسود وطويل.. طويل.

تعلم الشعر والنثر.. خط لها أجمل القصائد وأرسل في حبها

بيوت الزهيري والدارمي[1]... هام بحبها وعشق كلامها..وفي لحظة هيام انتبه إلى انه لم يرها... لا بل انه لم يسمع صوتها... ترى ما سبب تعلقه المجنون بها..صحا من غفلته هذه على قرار زوجته تَرْك البيت له بعد أن وجدت صعوبة في الإبقاء على ما يحصل سرا بينهما... ذهبت إلى بيت أهلها :

- لعله يصحى مما هو فيه.... أخبرت أهلها.

انتظرت مجيئه في آخر النهار ليعتذر منها ويؤكد حبهما ويرجوا عودتها... وضعت جوالها قرب رأسها علّه يتصل...مرّ يوم ويومان وهو مصدوم وحائر في ما آل إليه وضعه وما نتج عنه من تصرف غير حياته وبعثر عائلته... أراد أن ينهي هذا الموضوع وان يضع حدا له و يغادره :

- لابد لي من غلق هذا الباب نهائيا... علي أن أبدل رقم هاتفي... ولماذا أبدله سأقول لها أن تبتعد عني... أو لأطلب منها أن تقابلني فإن اعتذرت تركتها... لا لا..لا فما الذي سأفعله إن هي وافقت...ماذا إن هي وافقت.. أراها طبعاً وبعدها اطلب منها أن تبتعد عني.

كتب إليها (أريد رؤيتك... لابد من ذلك و إلا لن أجيب رسائلك بعد اليوم.. و اعتبري كل ما بيننا منتهيا)، أرسل رسالته... لم يأتي جوابها... انتظر وانتظر ولا جواب.. قرر أن

---

(١) نوعان من الشعر الشعبي العراقي.

يذهب ليستعيد عائلته، كانت زوجته قد تأكدت من تغير أحوال زوجها... كان لا يحتمل فراقها ساعة وها هي أيام تمر وهي بعيدة عنه.. ساورتها الشكوك والمخاوف وراودتها الأفكار والظنون... أحست أن هذا التغير بدأ يلامس مشاعرها تجاهه...رمت هاتفها بعيدا حين مسها يأس منه.

اتجه صوب بيت أهلها ليعتذر منها ويعيدها، وقبل أن يصل الباب صدح هاتفها الجوال بأغنية فيروز:

حبيتك تانسيت النوم ياخوفي تتساني..

حابسني برات النوم وتاركني سهراني..

أنا حبيتك..

وقبل أن تكمل فيروز مقطع أغنيتها وصلت هاتفها لتأخذه على عجل و تفتح رسالة وصلتها من مجهول يقول فيها:

(احبك حب ياويلي.. يملا كل مواويلي...

احبك يا أعذب إحساس... احبك من بين كل الناس)

كانت مفاجأة أذهلتها وتركتها في صدمة تفكر في من أرسل لها هذه الرسالة.

ببغاء

- أسرحوا بالدجاجات... أسرحوا بالدجاجات.. أسرحوا بالدجاجات...

صحوت وأنا أصيح بأعلى صوتي، هكذا بلا مقدمات ودون سابق إنذار، وجدت نفسي تحولت إلى ببغاء، ولما كانت زوجتي قد اعتادت كل صباح مناداة أبنائنا الصغار ليخرجوا دجاجاتنا من قنهن قبل أن تدخله هي لتسطوا على بيضها و تحوله إلى وجبة فطور نلتهمها بنهم بعيداً عن أعين دجاجاتنا اللاتي أُخرجن يلتقطن فتات ما نرميه من فضلات، ولأننا معشر الببغاوات نلتزم آخر كلمة في الجملة أو آخر جملة في الكلام ونعيد ترديدها مرات ومرات مدّعين أنها من كلامنا وأننا نفهم معناها ونحيط بثيمتها، لذا فإنني وجدت نفسي أُردد آخر كلمتين من أنشودة زوجتي الصباحية:

- هيا انهضوا.. الشمس في كبد السماء.. هيا اخرجوا واسرحوا بالدجاجات.
- اسرحوا بالدجاجات... اسرحوا بالدجاجات... اسرحوا بالدجاجات....

في البداية استغربت زوجتي تحولي المفاجئ هذا، إلا أنها سرعان ما اعتادته، مع أنها تتهكم على حالي بين فينة وأخرى، خصوصاً بعد أن تأكدت من استحالة أن أبيْض:

- هه.. طائر ولا يبيض... والله عشنا وشفنا.

ولتبعدني عن ما تتفوه من كلام مع جارتنا صنعت لي أرجوحة من الحبال وعلقتها بباحة دارنا لتجلسني فوقها كل صباح.

ولأنني ببغاء عصامي لا يقبل أن يعتاش على ما تصرفه زوجته عليه وعلى ما تجود به دجاجاتنا من بيض شهي، وتماشياً مع ما أتميز به من قدرات قررت العمل عند الرئيس ليكون مكاني كما هو مرسوم له متناسباً مع قدراتي لأشارك في صياغة وتوجيه الحياة.

أنيطت بي مهام جسام وشاركت بمؤتمرات واجتماعات وندوات، تعلمت كلاماً جديداً وخضت مناقشات صعاب، تحسنت قدراتي التعبيرية وازدادت ثقافتي الكلامية فبت

اعرف كلمات لم اردها سابقا، وصرت أُحرف منقاري يميناً أو شمالاً حين انطق الليبرالية أو الرأسمالية و العالم الجديد، عرفت أسماء أُناس جدد، وسمعت نظرياتهم التي أخذت وقتاً طويلاً في ترديدها، صرت عارفاً بفوكوياما وصامؤئيل هنتنجتون وكيسنجر، شرحت إستراتيجية الحرب الاستباقية ووقفت مع مبدأ أن لا تكون معي فأنت ضدي.

كان كلامي في مجمله اصداءا واسعة وترديد لما يقوله الرئيس، وكان الرئيس معجبا بكفاءتي ومقدرا لقدراتي، قلدني أوسمةً ومنحني شارات، وكنت راضياً عن ما حصل لي، فحمدت ربي كثيراً أن جعلني ببغاء لأحظى بفرصة المشاركة في صنع التاريخ، لم يشغلني شيء عن ترديد مقولات الرئيس ولم تلهني الحياة عن نشر كلماته بأعلى صوتي حتى جاء اليوم الذي دخلت فيه على الرئيس في غرفة نومه لأمر مهم، فوجدته خلع ملبسه وظهرت أجنحته واضحة جلية لأكتشف ببغائيتة الواضحة التي جعلتني أغادره حانقاً و لا أراه بعدها.

كيف لي أنا الببغاء العصامي ذي الكفاءات والقدرات العالية أن اعمل عند ببغاء آخر، حزمت ريشاتي التي أتزين بها أمام عدسات الكاميرا وتركت الرئيس، فانا لا اردد كلاماً رده احد قبلي، تذكرت زوجتي وترديدي لأنشودتها الصباحية:

- اسرحوا بالدجاجات...اسرحوا بالدجاجات...

قررت أن لا أعود إلى زوجتي فذهبت إلى رئيس بلاد أخرى كان قد عرض علي أن أكون معه، بعد أن أعجب بقدراتي مع رئيسي خلال زيارة من زياراته لبلادي.

رحب بي الرئيس وجعلني ببغاءه الشخصي، ولا غرابة في ذلك بعد ما سمع ورأى من خدمات أفنيت نفسي في تقديمها لرئيس بلادي أو ببغائها، ابتدأت مشواري الجديد بصوت أعلى من ذي قبل، اردد كل ما يقوله الرئيس، أردت أن اثبت لرئيس بلادي الببغاء أنني لا زلت ذلك الببغاء المطلوب من قبل الرؤساء، وأنني اعمل ببغاءاً كما خلقت ولست ممن يخفون حقيقتهم.

دخلت كلمات جديدة ومصطلحات مهمة في منظومة الترديد التي اعمل عليها، وصرت اردد بلهجة عسكريه متوعدة ما سيحل بالإرهابيين والعصاة والخارجين على القانون من دمار، أصبح جزءاً كبيرا من كلمات الرئيس التي ارددها تنصب في محاربة الأعداء والحرب المقدسة والهجوم المميت، كان جل اهتمام الرئيس ينصب في محاربة هؤلاء الأفاعي.

ما أثار حفيظتي وحرك وساوس الظن عندي تجاه رئيسي الجديد ما رأيته على وجه رئيسي الأول الببغاء من ضحكات صفراء ترتسم على وجهه حين تلتقي نظراتنا خلال زيارته إلى

رئيسي الجديد ، كانت نظراته تقول أن رئيسك الجديد ليس كما تظنه، اشتطت غضباً واعتقدت انه يريد كسر الصورة التي ارسمها لرئيسي في مخيلتي، انه يوحي لي أن لا فارق بينهم، بلغ بي الغضب حدة، قررت أن اخبر رئيسي المحترم عن حقيقة ضيفه وانه لا يتعدى أن يكون ببغاءاً بهيئة رئيس و أنني أفضل منه.

غادر الضيف وغضبي لم يفتر، أردت أن أتأكد من كذبه، تسللت إلى غرفة الرئيس بينما هو في نومته وكم فاجئني منظره، كان ذيله مرتفعاً ونقاط دم لازالت تلون مكان الريش المنتوف.

هربت ملتاعاً لا جهة اذهب إليها ، أيعقل هذا ، ببغاء آخر... ولكن ما هذا الكلام الذي يردده كل حين، الإرهابيون والعصاة والحرب المقدسة وعاصفة البراري وحرب النجوم... من يا ترى مصدر هذا الكلام الذي يتردد.. من قائله الأول، فلا قدرة للببغاء على صياغة حرف واحد ، وهم كلهم يرددون كلام غيرهم... كلام من يا ترى يرددون.

هل أعود لزوجتي... وكيف سأقابلها... هل سأخبرها... هل أعود لترديد نشيد الصباح...اسرحوا بالدجاجات..اس ر...ج..و..لا لا.. لأذهب إلى الخصوم... نعم اذهب إلى العصاة، الخارجين على القانون والمخربون علّي أجد بينهم من يقول كلمات هن

له، ومؤكد أنهم سيفرحون بي بينهم.

الثائرين، المكافحين، الأحرار، الأسود، طالبي الحرية، الشرفاء، ابتدأت كلامي بترديد كلماتهم هذه و عباراتهم الثورية، كانوا يقولون كلاما يجعلك تفخر انك معهم، يريدون التحرر ولا يقبلون العبودية، يريدون الاستقلال ولا يقبلون التبعية... أنهم يرفضون أن يتلقوا أوامرهم من الأغراب... إن كل فرد منهم هو الرئيس... يشعرونك بالرئاسة بينهم... يخامرك إحساس بأنك وجدت ضالتك بعد أن تهت لسنين.

اندمجت معهم، رددت كل شعاراتهم من حرية وثورية وثوار ومكافحين وملائكة وأحرار و اسود، نسيت نفسي بينهم... نسيت للحظات أنني ببغاء يردد ما يقال أمامه، وبالمقابل غابت عنهم حقيقة كوني ببغاء غريب بينهم، وفي لحظة نشوة بانتصار رموا ما يلبسون فظهرت مناقيرهم وبانت ذيولهم التي غطتها الرمال والأوساخ.

همت لا الوي على رأي... درت ودرت وما وجدت من جهة يمكنها ان تحويني...جهة أجد فيها أول من يقول الكلمات لأرددها بعده... تذكرت زوجتي فاتجهت نحو البيت وفي الصباح علا صوتي صادحاً:

- اسرحوا بالدجاجات...اسرحوا بالدجاجات...اسرحوا بالدجاجا.... .

بين عبد الشط وفريج أقرع

قلة هم الذين يعرفون الوقت الذي فرض فيه عبد الشط[٢] سيطرته على النهر الملامس لقريتنا، هو شرطيه المهاب، وقوانينه واجبة الطاعة، لكن لا احد منهم يعلم جهة تفويضه.

كنا صغاراً، لا مكان يحتوي ألعابنا سوى شط النهر، نجتمع عند المضخات التي تمتص مياه الشواطئ لتسقي الأراضي فينبت المحصول، نلعب الـ (زعيبطر)[٣]، نبني قصوراً وعمارات، معامل ومصانع وفيلات، نسحب أنبوب الماء الحار

---

(٢) عبد الشط : هو خرافة أو أسطورة من أساطير شواطئ الفرات، تقول الأسطورة أن عبد الشط يفرض سيطرته على الفرات ليلاً فلا يسمح لأحد بدخول النهر ليلا فيغرق كل من يتحداه، وهو شديد السواد ولذلك سمي عبد الشط.

(٣) الزعيبطر: لعبة يلعبها الأطفال على الشواطئ الرملية خصوصاً، وهي عبارة عن خلط رمال الشاطئ بالماء لتكون مسالة ثم تقطر تقطيراً فوق بعضها بعضاً ليبنى منها بيوتاً وأقواس وعمارات.

من المضخات... نبني له سواقي ونجعلها انهاراً تسقي مدننا والساحات، نعمل منها جداول وشلالات، فرحين غير وجلين :

- عبد الشط يراقبكم... ألعبوا...واسبحوا لكن لا تمخروا بعيدا في النهر فتدخلوا أماكنه وتزعجوه فيغضب منكم...، يقول عمي صالح وهو يراقب مذب الماء المتدفق بعنفوان في (القلّة)[٤] التي نسبح بها بعيداً عن أعين عبد الشط..

نعشق السباحة في الشط ونتبارى في تحدي النهر والتقدم فيه، نحكي لأهالينا، فيوصينا الآباء والجدات: (العبوا واسبحوا وناموا على الشطئان...لكن إياكم وإياكم أن تسبحوا في النهر ليلاً فتزعجوا عبد الشط ويصحوا منكم زعلان)، حفظنا إجابتهم لسؤال يبدر من خائف يتحاشى غضبة عبد الشط ويخاف الطوفان:

- الشط هو يمتلكه... هو يحميه...قوته تسيطر على ما فيه من اسماك وكواسج وحيتان..هو يكبح وحشيتها ويمنع همجيتها... فإذا اغتاظ وغضب فان الشط يعلو

(٤) القلّة : حوض ماء واسع يتم عمله تحت أنبوب الماء في بداية الساقية الممتدة إلى الأراضي ليخزن قسم من الماء يستعمل لمليء الأنابيب مرة أخرى عند تشغيل المضخة من جديد.

ويعم الطوفان، فتظهر دوارج البحر وحيتانه بين البيوت والمزارع و الأطيان .

مالت الشمس إلى المغيب ونصبت خيمتها الحمراء تغطي بها القرى والشواطئ والزرعان، نهضت من نومتي النهارية الطويلة لأقف ليلي بجوار مضخة الماء فأستمع هديرها العالي واستأنس به في لجة ليل دامس ووحشة شطئان، أحمل (جلكان) وقود تلطخ ببقايا أتربة لأزيد ما نقص منها في الخزان، أراقب تدفق الماء من أنبوبها الطويل، وأتأكد من امتصاص الماء وصعوده دون الأطيان، أتحسس أي هواء ينفذ عبر نقاط تلاقي فوهات أنابيب يقّبل احدها الآخر قبلة ولهان، فأطلي بالطين الحري أي فراغ بين الفوهات تسرب نسمة هواء شطية قد تمنع صعود الماء إلى البستان.

سرت في الطريق إلى المضخة المتمسكة بالشط، احمل كيس قماش يحوي خبزاً وخضاراً أتسلى بهما في ليلي الطويل، مع رقية اسحلها من مزرعة قرب الشاطئ أو في الطريق، لاحت لي من بعيد شجرة التوت العملاقة، تبدو كالغول، تخيم على أبنية وأحياء وعمارات مشيدة من رمل (الزعيبطر) المخلوط مع الماء، اقترب، هدير مضختنا يتعإلى، اسمعه، يتراءى لي سيمفونية موسيقى تأتي من عصور بعيدة، امشي مترنحاً يلفني بقايا نعاس لا زال يحط فوق جفوني،

أصوات أناس اسمعها تملأ ما يترك هدير المضخة من فراغات، توقفت أنصت جيداً، صياح وكلمات، ركضت مقترباً، اجتزت مسافات، تدور في ذهني أفكار شتى وخرافات، أصل وأنفاسي تتلاحق، جمعٌ على وجوهم ترتسم من الرعب علامات، تتهيأ نفسي لنبأ صاعق، نبأ يترك في الأرض علامات، تساءلت والرعب يملأني:

- ماذا... لما تتجمعون...
- عبد الشط أخذ صالح...، جاءتني جملة إجابات.

جفلت وخفت، اهتز كياني وصعقت، سئلت نفسي وتعجبت:

- عمي صالح... يأخذه عبد الشط... هو من كان يحذرنا...
- عمك صالح لا يقبل سيطرة الأغراب... عمك صالح يفتح للرفض الأبواب.
- لكن هو من كان يوصينا... هو من حذرنا... هو من أراد لنا أن لا نقترب عبد الشط ونغضبه فتنفتح الأبواب...، صحت بصوت عال.
- يخاف عليكم... صغاراً أنتم...لا زلتم لا تتبعون الأسباب... وهو يعرف عبد الشط..... غريمه ويعرف مكره.. خبر ضغائنه وما يضمر من أحقاد.... لم يرد

لكم أن تتورطوا معه دون أن تعرفوا حقيقته... وتثبت عزيمتكم بالأوتاد....، صاح سرحان بصوت عالي ليطفوا صوته سابحاً فوق هدير المضخات.

- وما هي حقيقته... أن يُغرق متحديه... أن يفرض سيطرته على ما له وما عليه...أن يسعى الكل ليسترضيه... وكيف لنا أن لا نستعديه.. كيف ننال رضاه ونزيل الحيف...قل لي...كيف ننجي عمي صالح منه... قل لي كيف.
- لا سبيل لمحنتنا.. سوى طريق واحد قد ينجينا ويعيد الأموات... لا اعلم صدقه... قد يكون خرافة... نقلتها العجائز والجدات... جربها أسلافنا فعمهم خير كثير.. بعد دماء اصطبغت بها الشواطئ والطرقات... وضياع في المجهول ما بين هنا وهناك... لكن ليس لنا غيره... يقال أن عبد الشط يخاف السكين... ويخاف الملح... لا شيء غيرهما يخاف...لنهجم بهما عليه...نواجهه بهما في وجهه...فيعلو الصوت و ينهزم الطغيان... علينا أن نجهر بصوت واحد...يرتفع على كل الشطئان... سكين وملح... سكين وملح..عله يخاف ويهلع فيترك لنا صالح فنستقبله بالأحضان..
- سكين وملح... سكين وملح، امتلأت الأفواه صياحاً

يتعإلى بين الشطئان، فيعيد النهر صداها يتردد عبر الأزمان.

أطفأنا مضخات المياه ليعلوا صوتنا فتردده جميع الشواطئ والأحراش:

- سكين وملح
- سكين وملح..،هدير الصوت يعلو فتنهزم الأسماك والديدان.
- سكين وملح
- سكين وملح...، كان هديرنا عاليا ومهيبا.

لم يترك عبد الشط عمي صالح، أيام وليالي نراقب الشط، نصيح ونبكي، نتوسل ونرجوا وعبد الشط ينتقم لرفضه، يريد لصالح أن يكون لغيره عبرة، غضب الجميع، قرروا أن يطردوا عبد الشط، أن يهجموا عليه، أن يسبح الجميع في كل الأماكن،أن يستمر الصياح، ليل نهار (سكين وملح...سكين وملح)، حتى في الطرقات، أيام وليال، لم يظهر عبد الشط أبداً لكننا وجدنا جثة عمي صالح ملقاة على شاطئ بعيد تقضم ملامحها الأسماك.

لم يرى احد بعدها عبد الشط... اختفى، ادعى نفر منا: (رأيناه يقف بين الأحراش...كانت سيقانه طويلة... سبح بعيداً في النهر لما اقتربنا)، لم يكن معهم أي دليل، (رأته قرى أخرى في

شواطئها)، قال آخرون، يوماً بعد يوم غاب ذكره وتلاشى، اختفى عبد الشط وبقي هاجس الخوف يراود وحدتنا عند الشاطئ.

انقطعت أخباره، لم يعد احد يذكر رؤيته، شهور مرت، تحرر الناس من سطوته على الشط، توسعت مناطق صيدهم ونسوا ما كان يرعبهم، شهور تمضي ليعود الخوف يملأ قلوبهم، أقاويل بدأت تتردد بين الناس أخيراً :

- أن سيداً آخر للشط بدأ يظهر، هو يقول انه هو من طرد عبد الشط.

كذبنا خبرهم هذا، تكررت رؤيتهم له، أناس تقسم على صحتها، وانتشرت الأخبار، أناس بادر يكلمهم، وأناس ساعدهم... هو يظهر وقت الظهر، يتأخر في نومته صباحاً، يسبح بين الأحراش عند الشاطئ ويبتعد وسط النهر إذا اقترب منه احد، وصفه من رآه:

- شكله شكل بشر، رأسه كبير ولا ينبت عليه شعر، يتكلم كلامنا ويعرف لغتنا..يقول أن اسمه (فرج الأقرع)[٥].

---

(٥) فريج اقرع : أسطورة أو خرافة من خرافات شواطئ دجلة : تقول الخرافة أن هنالك شيئاً يسبح في الشط رأسه كبير و اقرع (لا شعر على رأسه) وله ملامح البشر، لا يظهر منه سوى رأسه، عند الاقتراب منه يهرب=

رأوه أناس كثر، كلمهم وكلموه، اخبرهم:

- أنا من طرد عبد الشط... كان همجياً متخلفاً... شريراً، لا يحترم البشر.
- سأجعل من هذا الشط ملاذ أمان لكم... وسأخرج ما في باطنه من طيبات وسمك... وامنع عنكم وحوشه.. كواسجه والحيتان.

تناقل الناس كلمات فرج اقرع، وكثر الكلام عن حسناته،وقدرته كبيرة في الإقناع، بسيط في أسلوبه، متوداً، يكلمهم كأنه منهم، تذكُر حطابات القرية اللاتي يجمعن جذور الأشجار المتدلية على الشواطئ انه انتزع جذوراً من الشط ورماها لهن، وعرض على ملايات الماء من الفتيات مساعدتهن في مليء أوانيهن بالماء من وسط النهر، فرفضن، وأكاد اجزم أني سمعتهن يتندرن بمنظره فيما بينهن:

- كلامه جميل... وأسلوبه ساحر، تقول إحداهن.
- كنت سأقبل الزواج منه لولا انه اقرع...، ترد الأخرى فيضحكن عالياً بينما يحملن أواني المياه على رؤوسهن.

دلعوا اسمه وصغروه، صاروا ينادوه (فريج اقرع)، الكل يشهد أن كلامه جميل، سلس في تعامله وكلامه، لا يظهر شراً ضد احد، يقول انه يريد خير هذه القرية والقرى القريبة،

=وسط النهر ويبدأ بسب الناس وشتمهم.

ويمنع عنها كل عبد للشط يغرق أهلها و يفرض سيطرته دون حق.

صار فريج اقرع جزءا من معالم قريتنا وشطها العريض، اليوم جميعنا نشهد له بما يبذل من مجهود في محنتنا التي كبرت، هو يتعب معنا، يشاركنا عملية بحثنا اليومي عن أبناء قريتنا الذين بدأ الغرق يأخذهم واحداً تلو آخر ليزداد عددهم مع كل ظهيرة يوم جديد.

انتخاب الرئيس

- لقد قتلوا الملك...، صاح المنادي، فهب الجميع يركضون، ركضنا معهم نستطلع الأمر، كنا صغاراً لا نفقه من الدنيا سوى لعبتي (الغميضة) و(طم خريزة) التي نلعبها على مقربة منهم بينما هم يحرثون الأرض و يسقون الزرع أو يرعون الأغنام.

وصل الجمع قريتنا ببيوتها الطينية الكالحة اللون المتناثرة هنا وهناك يتوسطها بيت جدي أو كما يطلقون عليه (الملك)، تقدمنا هلعين إلى الدار بعد أن لاحت بوادر صحة الخبر.

لم نصدق منظر جدي ممدا على ارض باحة داره غارقا بالدماء، وهو الرجل القوي المهاب من الجميع، الكل يسمع كلامه ويطيعه.. هو المتحكم بأمور قريتنا وهو من يقرر من يخرج للحراثة والزراعة، ومن يخرج للرعي ومن يبقى في الدار... هو من يقرر من يتزوج من الشباب ومن هي البنت التي يتزوجها... كان هو القانون الذي تسير عليه قريتنا الفقيرة وهو دستورها الذي يحدد من له حق ومن ليس له.

يقال أن لقب (الملك) الذي كان يستهويه كثيراً أطلقه أهل القرية عليه بعد أن تفاوض مع آمر فصيلة الخيالة الانكليزية التي كانت تخور القرية ذهاباً وإياباً، فاتفق معهم على عدم دخولهم القرية مقابل تنفيذ طلباتهم بمنع أفراد القرية من التعرض لهم في طرق ذهابهم وإيابهم .

الوجوم يعم الوجوه وعيونها تتجه صوب الجسد الممدد، صمت مخيف كسره صوت العم سرحان الخشن :

- لابد من معرفة القاتل... لن يمر الليل قبل أن نعرف الفاعل ونقتص منه.

ساد الهرج والمرج في كل مكان... صراخ وصياح... دخان اختلط بغبار حوافر الخيل الراكضة بكل الاتجاهات... الجميع دخلوا منازلهم واختبئوا فيها، غربت الشمس وصيحات الرجال والنساء وحتى الأطفال تسمع بين لحظة وأخرى، هلع يسيطر على الجميع:

- من هؤلاء... وما الذي يقومون به، سألت أمي مرتجفاً من شدة الخوف.
- إنهم رجال القرية يا بني، وهم يبحثون عن القاتل الذي سيجدوه بالتأكيد، ردت أمي محاولة تطميني وأخوتي الصغار.

في الصباح كان هنالك جثث كثيرة ملقاة على الطرقات،

نهبت مخازن الحبوب وأفرغت دار الملك من محتوياتها ، حتى مدرسة القرية ذات الصفين سرقت جميع محتوياتها.

وفي المساء أعلن عن اختيار العم سرحان رئيساً للقرية ليعلن عدم رغبته بلقب الملك الذي كان رئيس القرية المقتول يلقب به فاقترح احدهم تسميته الرئيس .

لم يتعدى الزمن شهوراً ليقتل الرئيس سرحان، فتنتشر الجثث في الطرقات مرة أخرى ويعم الفرهود ، ويستلم الرئاسة عماً آخر هو جميل الذي عارض رئاسته الكثير طالبين اختيار رئيس القرية بالانتخاب.

اجري انتخاب واختير رجل من القرية هو توفيق ليكون رئيساً للقرية ، لنصحوا بعد ليل على جثث رجال ونساء ملقاة على الطرقات.

كبرنا وكبرت قريتنا ، ونجحت فيها عملية الانتخاب، فتوقف قتل الرئيس واستمر رمي الجثث على الطرقات في كل انتخاب.

أمطرها لتحيا

((مهداة إلى كل إناث السحاب))

هي، سحابة تشرينية زرقاء تتهادى في سماء صافية تأخذها نسيمات هواء باردة هنا وهناك، رشيقة لا تحمل سوى زخات مطر خفيفة تنتظر وقت هطولها، فيقترب الشتاء لترتفع سحب وغيوم أخرى وتملأ السماء.

هو، سحاب كبير يملأ عين السماء يشعر من حوله بشتاء يعصف مطراً يعقبه ربيع ينبت أزهاراً ملونة، فيفرض قيود هيبته و طغيان حضوره، ليبدأ فصل جديد وحياة جديدة، فيكون التغيير الذي لابد من أن يكون.

أحست بقوة جذبه التي تسحبها نحوه بقوة، وبمحاولاته الرعدية العاصفة لابتلاعها وانتزاع قطراتها التي ما فتئت تتجمع لتكون تعاريج جسدها وتنفخ أجزاءً منه مظهرة قدرتها على أن تمطر أرضاً قد تختارها، فارتجفت خوفاً من ضعف قوتها وجبروت تحكمه وقدرته على استمالتها ليسلبها ما تملك فتتهاوى ساقطة لا يرفعها شيء بعده.

مال إليها واسترضاها، ولما وثقت من صدقه ومبتغاه مالت إليه، فانعقد العقد بينهما، وانغمرت به وهامت، لا يشغلها أمر خلا إسعاده والارتشاف من زخات المطر التي تملأه.

أدت أمام عرش رجولته كل فروض الحب فأمطر عاصفاً يغمرها وتكاثر ماءها المحبوس باطنها، المتوسل للهطول ولما أحست بضعف فروض الحب في إيصاله لما يسعده ويشبع رغباته انشغلت بالنوافل واجتهدت في تعلم ما يجعله أميرها المستجاب.

أرادت أن ترشده ليعصرها فيندلق ماءها زاخاً لتوقف تشوش فكرها المتحمس و ترهل جسدها الرشيق واسوداد وجنتيها البيض اللتين أحاط السواد بهما جراء رذاذها المتجمع وندى حرارة لحظات قربهما من بعض.

أرادته أن يعرف كيف يتقرب إليها ويزيد شحناتها، أن يصطدم بها ويلثم جسدها ويضغط تضاريسه لترعد وتبرق فتمطر مطراً طال انتظاره.

مر الشتاء وحل الربيع فخشيت وصول الصيف حيث لا مطر فيه، حاولت معه مرات ومرات، سحبته مرة لما تريد فأمطر وأمطر وما فهم مرادها، ودفعته مرات ومرات فكثرت أمطاره دون إمطارها فما نبتت وردة ولا طلع شجر.

قرر أن يجمع غيرها، فتكون له سحابة أخرى يمطر معها،

فالسماء تسمح له، وأمطاره لم تسقي زرعاً، فعسى إن أمطر مع غيرها أن تنبت أراضيه.

زمن وابتعدت منه سحابته الأخرى، فمطره له وحده ولا يمكنه إمطار غيره وان كان الجو ملبداً والرياح تعصف والرعد والبرق من كل صوب.

غفا وسط السماء فأخذته الرياح بعيداً لينزل في البحر ويذوب، وبقيت هي وحيدة تترقبها العيون وتتأسف لذبولها وانكماشها، وتدعوا أن تصاب بمطرها، فلا زالت سحابة تحمل أمطاراً وأمطار، ويلتف جسدها كلوحة رسمها فنان وسط السماء مع ما يكتنفها من الم وحزن وخسران.

اقترب منها سحاب كثيف و نجح في كسب قربها فانعقدت بينهما كل المواثيق، كشف تضاريسها وضمها إليه بقوة لتتداخل تضاريسهما، فترعد وتزمجر وتبرق ما يضيء سماءهما، فيعصرها بقوة لتمطر مطرا تنبت منه أشجار وورود وحدائق غناء.

أشرقت الشمس فانبرت تتمايل في السماء رشيقة زرقاء تتغذى وتستجمع رذاذا ومياه تمطره مع أميرها، لتحيا من جديد.

الطيور بخصائصها تموت

سلمني العريف عادل كتاب نقلي إلى وحدتي العسكرية الجديدة بعد أن أكملت دورة التدريب المطلوبة في مركز التدريب العسكري، ونظرته الجادة في عيوني توحي بأنني مقبل على أيام صعاب تختلف كثيرا عما تعلمته في مركز التدريب، زاد من هذا الاعتقاد عندي مخاطبته لي بعد أن أديت التحية العسكرية له مغادراً غرفته قائلاً:

- لا تنسى أن معك جندي آخر في نفس الكتاب، حاول أن تجده وتلتحقا بوحدتكما الجديدة سويةً، ونريدكم (تبيضون) وجوهنا بالجبهة...
- إن شاء الله تسمع عني كل خير سيدي، أجبته ثم خرجت ويدي تقبض على كتاب النقل بشدة.

وجدت جندياً ينتظرني خارج غرفة العريف قدم نفسه لي قائلاً:

- أنا قاسم، وقد طلبوا مني انتظارك هنا لحين استلام كتاب نقلك الذي استلمت أنا نسخة منه قبلك بقليل

فنحن منقولين بنفس الكتاب وإلى نفس الوحدة.

عرض إليّ كتاب نقله فاتحاً إياه بكلتا يديه، ففتحت طوية كتابي الذي لازلت اقبض عليه بقوة لأقارنه بكتابه فوجدت الكتابين متشابهين وعرفت أن اسم زميلي هو قاسم حسين فرهود ، سلمت عليه ورحب كل منا بالآخر.

وصلنا وحدتنا الجديدة بعد رحلة سفر طويلة عند الغروب، كان آخرها مشياً على الأقدام بسبب قرب وحدتنا الجديدة من جبهة القتال، اتجهنا إلى قلم الوحدة وسلمنا كتب النقل ثم أخذنا العريف مجبل وسلمنا فراشاً ودثاراً ننام عليها حتى الصباح فتعرض كتبنا على الضابط ليقرر مكان خدمتنا.

اصطحبنا احد الجنود ليدلنا على مكان نومنا في احد الملاجئ حيث فرشنا فراشنا قرب بعض، أحسست بغربة شديدة وبشيء من الخوف زاده ما يصل مسامعنا من قصف ودوي بعيد ناتج عن معارك وقتال شرس على الجبهة، لم استطع النوم وجلت بعوالم وأفكار كثيرة محاوراً نفسي بعد أن وجدت زميلي قاسم يغط في نوم يقطعه دوي المدافع بين حين وآخر.

- ترى هل سأذهب غدا للقتال على الجبهة القريبة... وكيف سأقاتل وأنا لازلت جديداً.... ترى لو أنني اجتهدت في دراستي ونجحت وأكملت سنينها ، هل كنت سأكون بمكان آخر غير هذا المكان البعيد

الغريب الموحش... وهل أن زيادة قدراتي وتقدم تعليمي وقوة خصائصي يمكنها أن تبعدني عن هذا الموت.

- من يدري، قد يكون هذا كله مقدراً ولا سبيل لتفاديه مهما تعلمت أو ارتقيت بخصائصي وقدراتي ... المهم أنني اكره القتال... لأنني امقت الموت.
- هل يمكن أن تتواجد الإنسانية بمعناها الكامل هنا على هذه الأراضي وفي هذه الظروف... لا لا، لا اعتقد أن للإنسانية وجود في مثل هذه الظروف وما يتوالد فيها من قتل وهدم وتخريب، وان وجدت فهي بالتأكيد إنسانية ناقصة أو مكسورة أو شاذة.

صحوت على صوت قاسم وهو يوقظني من الغفوة الصباحية القصيرة بعد ليل طويل، كانت الشمس بدأت للتو بالشروق وسكتت المدافع، فنهضت مستطلعاً ما حولي فوجدتها أراضٍ جرداء من جهة اليمين، تخلو من المعالم سوى بقايا سيارات محترقة هنا وهناك وأكوام ترابية متناثرة، أما ناحية الشمال باتجاه جبهة القتال فلا شيء يرى سوى سده ترابية أو ساتر عال يتمدد على سفحه المقابل لنا عدد غير قليل من الجنود وعيونهم تتجه صوب جهة الجبهة المقابلة.

أكملنا ارتداء ملابسنا العسكرية التي نمنا بمعظمها واتجهنا صوب العريف مجبل الذي اصطحبنا إلى الضابط

الموجود في ملجأ آخر قريب، فدخلنا عليه وادينا التحية العسكرية له، وقدم العريف مجبل كتاب نقلنا إليه وبعد أن قرأ محتواه نظر إلينا سائلاً:

- ما الذي تعرفون عمله، استغربت سؤاله، إلا أن قاسم أجاب:
- أنا إداري جيد واستطيع العمل في مجال المخاطبات الإدارية.
- ما شهادتك... أين وصلت بدراستك، سأله الضابط
- أنا خريج كلية اللغات...،أجاب قاسم.
- جيد سيكون عملك في حضيرة الاستطلاع ويمكننا الاستفادة منك في ترجمة الرسائل المسترقة من أجهزة العدو اللاسلكية.
- وأنت ما هو تخصصك، سألني الضابط.
- أنا خريج معهد الفنون الجميلة... موسيقى، أجبت، فابتسم الضابط، ثم سأل:
- هل تستطيع تربية الطيور..، دهشت لسؤال الضابط وظننت انه يمازحني، فكيف تتم تربية الطيور في ظروف يقتل فيها الإنسان، ابتسمت مستغرباً.
- هل يمكنك أن تربي طيوراً وتهتم بها، أعاد الضابط السؤال بلهجة جادة وحادة.
- نعم... نعم سيدي يمكنني، أجبت مع خوفي أن يكون مستهزئاً بي.

- جيد... أنت ستكون مسؤولاً عن أبراج الطيور في الوحدة.

خرجنا والاستفهام يلفني... أية طيور وأية أبراج يمكنها أن تكون في هذا الخراب.وان تكون تربيتها مسؤولية... لم اصدق ذلك حتى سلمني العريف مجبل أبراج الحمام ودلني على أماكن غذاءها وكيفية تقديمه لها وطريقة مليء أواني المياه لها.

كانت مفاجأة كبيرة لي وانأ الذي ظننت أن الإنسانية لا وجود لها في مثل هذه الظروف، فشعرت بخطئي الكبير وصارت قناعتي أن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن إنسانيته، لا بل عن رومانسيته في أن يكون له وفي أحلك الظروف وأشدها قساوة برجاً من الحمام يمكنه أن يضفي على وجوده نوعاً من الأنسة ويذكره بطبعه الإنساني الرحيم.

سألت العريف مجبل بعد أن استلمت أبراج الحمام وتعلمت طريقة وأماكن غذاءها وشرابها:

- هل توجد أبراج حمام في الوحدات الأخرى أيضاً أم ذلك يقتصر على وحدتنا.
- في كل وحدة عسكرية على الجبهة تجد أبراجا للحمام مثل هذه..، أجاب العريف مجبل بصوت حازم.
- ولما الحمام...لما لا يكون غيرها مثل...، لم استطع أكمال سؤالي حيث أن إجابة العريف مجبل كانت سريعة ليغادرني:

- لان الحمام يمتلك خواصاً وقدرات مميزة...

غادرني العريف مجبل تاركاً انطباعاً في نفسي إلى أن سهولة تربية الحمام وتقبله لرفقة الإنسان حتى في مثل هذه الظروف إضافة إلى رقته ومايضفيه من أجواء الألفة والالتصاق بالوطن الذي يحيا فيه هي التي جعلته مميزاً عن غيره من الحيوانات ليحظى بشرف رفقة وتقبل الإنسان وخدمته لها في ظروف قد يغفل فيها الإنسان حتى عن إنسانيته.

عرفت الآن أن القدرات المميزة لدى كل الكائنات وليس الإنسان فقط تجعله محط اهتمام الإنسان وخدمته، فأن تمتلك قدرات وخصائص فانك لابد تجد من يخدمك.

مرت شهوراً كنت سعيداً بالعمل الذي أنيط بي، وكنت أجيب من يسألني خلال إجازتي من أهلي وأصدقائي عن طبيعة واجبي فأقول لهم:

- إن واجبي هو الاعتناء بأصحاب القدرات في الوحدة.

بعد وقت ليس طويل اشتد القتال على جبهتنا فبدأت تصل قذائف العدو مقرنا، وخفت على الحمام فطلبت من العريف مجبل نقلها إلى مكان آخر فلم يجبني واكتفى بالضحك وكأنني مازحته.

وفي صباح شتوي بارد وقبل شروق الشمس بوقت قليل، خرجت من ملجأي بعد ليل قصف طويل لمدافع العدو، لأتفقد

أبراج الحمام كما هي عادتي كل صباح فاستغربت عدم سماع هديلها ، فراعني ما رأيت وتسمرت أقدامي لا اعرف ما افعل، لقد مات قسم كبير من الحمام وقسم مرمي بين التراب ينازع بين الموت والحياة، صدمتني المفاجأة التي لم أتخيل حصولها ، ركضت صوب مجبل الخارج تواً من ملجأه وصحت عليه من بعيد

- الحمام يموت.. الحمام يموت..أسرعوا إليه انه يموت..

جفل العريف مجبل وانتصب واقفاً من شدة المفاجأة وركض إلى ملجأ الضابط الذي خرج مسرعاً واصدر أوامره بترك الموقع حالاً والانسحاب إلى مكان آخر.
ركض الجميع وتركوا كل شيء وانسحبوا مبتعدين، أردت أن اطمئن على الحمام، أن أرى إن كان فيها حي لآخذه معي، فمنعوني، استفسرت منهم عن السبب فأجابوني:

- إنما نحن لمثل هذا نربي الحمام...لقد ضربنا بالعامل الكيمياوي.

اكتشفت بعدها أن اهتمامهم بها كان لخصائصها المتميزة التي تحقق لهم مصالحهم.

بـدر الحرامي

نَطَّ من على سور القصر العالي بعد أن غطى ملامح وجهه بلفاف قطني ابيض، ليجد نفسه في الحديقة، دفن نفسه وسط أشجار ألآس الكثيفة وعينيه تستطلع يميناً وشمالاً ليتأكد من عدم بقاء أحداً من أهل الدار الذين دأبوا على قضاء يوم الجمعة من كل أسبوع في مزرعتهم خارج المدينة.

انطلق كلمح البصر إلى شجرة البرتقال الملاصقة لنافذة المطبخ المطلة على الحديقة الجانبية، واخرج من جيبه أداة حديدية تعلم استخدامها مذ سلك طريق السرقة الذي برع فيه.

سرق معظم بيوت المترفين في المدينة، كان الكل يعرف انه هو السارق... سمّوه (بدر الحرامي) إلا أن لا دليل يجدوه يمّكنهم من أن يسجنوه.

- أنا لا اسرق الفقراء... أنا اسرق الأغنياء الذين لا يعطوننا نحن الفقراء مما أعطاهم اللّه..، يقول بدر الحرامي ليبرر سرقاته.
- السرقة سرقة إن كانت من غني أو فقير ويا ويلك من

عذاب الله الذي لن يغفر لك أفعالك هذه، يرده فراس الذي اعتاد أن يوبخه ويتهجم عليه ويتوعده.

فتح النافذة ودخل القصر بكل سهولة تاركاً مزلاجها مفتوحاً تحسباً لأي طارئ، بدأ يتجول في غرف القصر وأقسامه وكأنه في بيته... قرر أن يبدأ بالتفتيش عن ما خف وغلا في غرف النوم التي يعرف بحكم تجربته الطويلة أن الناس تخفي أشيائها الثمينة فيها.

سمع وقع خطوات أجفلته..تسمر عن الحركة...أنصت جيداً...تأكد من وجود أناس غيره... بحركة خفيفة وسريعة وجد نفسه عند النافذة...قفز منها خارجاً واتجه صوب السور.

وقع أقدام كثيرة كانت تعدو خلفه... نط بخفة فوق السور وأدار رأسه ليتبين من كان وراءه... كانت مجموعة من الشرطة قد كمنت له إلا أن حركاته الخفيفة كانت أسرع منهم.

انطلق يعدو في الشارع ورجال الشرطة يركضون على مبعدة خلفه... حار في أي طريق يسلك... وجد باب الجامع مفتوحاً فدلف داخله وأنفاسه تتلاحق... نزع ما يغطي رأسه وتقدم بين المصلين المنصتين لخطيبهم... وجد متسعاً لجلوسه فوضع لفافه القطني تحته وجلس...حصلت جلبة واستدارت رقاب المصلين مولية وجوههم صوب (بدر الحرامي) الذي

فاجئهم بحضوره صلاة الجمعة معهم لينتبه خطيبهم ويستشعر خوف بدر الواضح على محياه.

غير الخطيب من سير خطبته وحورها ليربطها بما استجد تواً من حضور، قائلا:

- أيها الأحباب... إن تجمعنا في كل صلاة هو ذكر لله ... وجماعات الذكر تحفها الملائكة من كل صوب... فكونوا مطمئنين غير وجلين.. غادروا خوفكم وأأنسوا بحضرة الخالق جل وعلا... تأكدوا أن لا مكان أأمن من مكان تحفه الملائكة...

شعر بدر بالاطمئنان وعادت إليه سكينته فتعدل في جلسته وازداد إنصاته للخطيب الذي استمر بخطبته :

- أيها المؤمنون... يا أحباب رسول الله..، كان وقع هذه الكلمات مدوياً على مسامع بدر... هل يمكنني أن أكون مع المؤمنين... وهل أنا حقاً من أحباب رسول الله..و بعد كل هذه السرقات... الم يقل لي أكثرهم أن الله لن يغفر لي ما اقترفت... ألم يؤكدوا لي أن لا عودة عما سلكت...
- يا أحباب المصطفى... يقول الله [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] فرحمته وسعت كل شي، فهو الغفور الرحيم... يغفر كل خطيئة وكل

ذنب.. سبحانه غافر الذنب وقابل التوبة من التائبين، فتوبوا لله مخلصين وانزعوا عنكم كل ذنب اقترفتموه، وعاهدوا الله ثم أنفسكم بترك المعاصي والذنوب...

- انه كلام لم اسمعه قبلاً ... كلام فيه أمل كبير..لا بل انه طوق نجاة بعد أن صار الاعتقاد أن لا تغيير يمكنه الإصلاح.
- إياكم واليأس... إياكم والقنوط...فهو الهلاك، يقول عز من قائل [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا]... يا للبشرى..كل الذنوب، بأجمعها تغفر... لا ذنب يبقى طالما تبت عنه وندمت عليه وتركته إلى غير رجعة.

لم يتمالك بدر نفسه فانفجر يبكي، حاول السيطرة على نفسه دون جدوى.. كان بكاءه أليماً وطويلاً جعله يغادر قاعة الصلاة إلى محل الوضوء... هناك بكى وأنّ وناح... توضأ واستغفر كثيراً ثم عاد ورأسه مطأطأ... صلى صلاته الأولى خلف الإمام.

زار بدر كل من سرقهم وأعاد لهم ما بقي من ممتلكاتهم واستسمح منهم طالباً صفحهم ومسامحتهم في ما سرق وترك لهم حرية أن يختاروا بين أن يطالبوه بما أكل فيعمل على

إعادتها لهم أو يهبوه لوجه الله، فترك الجميع حقهم ووهبوه دفعة منهم كي يسير على سبيل السواء.

مرت الأيام والشهور و بدر لا يفارق المسجد الذي وجد له محلاً قربه يخيط الملابس فيه، فإذا ما حان وقت الصلاة نادى إمام المسجد:

- نادوا (بدر المؤذن) ليؤذن للصلاة.

جنين يشهد صادقا

(مهداة إلى روح الشهيدين الصحفيين نمير نورالدين
وسعيد جماغ اللذين قتلتهم الاباتشي الأمريكية)

تعوّد أن يصطحبني معه أينما ذهب، مع أنني اشعر أحياناً بثقل وجودي عليه وبتقييدي لحركته، إلا انه يصر على أن أكون معه حيثما يكون ليغمرني بحبه الذي جعلني اعشقه حد التضحية بنفسي دونه.

حضرت معه حفلات وأعراس ومهرجانات شعر وغناء وخطابة، حتى عندما استدعاه الرئيس للقائه أصر على أن أكون معه، فرأيت ما رأى وسمعت كل ما سمع وسجلت ما لم يستطع هو أن يسجله في خضم لقاءاته.

رن جرس الهاتف منادياً، نهض من فراشه وأجاب على المتصل، تحرك مستعجلاً وأبدل ملابسه ذات الجيوب الكثيرة، التي طالما أعجبتني وشدتني للنظر إليه أكثر عندما يرتديها، اتجه نحوي... كنت مستلقية على الكرسي الأسفنجي الوثير المقابل له...حملني بين يديه كما تحمل الأم

رضيعها ، خشيت عليه من ثقل جسمي، مع انه تعود القيام بهذا كوني عاجزة عن السير، وان كنت استطيع الوقوف بمساعدته... حملني على كتفه فعاد إليّ شعوري بالحياة الذي طالما أحسست به عندما يحملني واشعر بحركتي معه، أردت أن اطلب منه البقاء في البيت لكن تحمسه جعلني أتحاشى هذا وانقاد لما ينوي القيام به.

اتجه بي صوب الشارع بعد أن ألبسني عباءتي.. ظننت لوهلة أننا سنذهب للمستشفى كي أضع حملي الذي زاد من وزني فوق كتفيه... هذا الحمل القابع بين أضلعي نتيجة معاشرتي له والذي اعتبره أغلى واعز ما يحويه جسدي.

غير من قناعتي تلك طلبه من سائق السيارة التوجه إلى منطقة بغداد الجديدة التي ما إن وصلناها أسرع بالنزول ليحملني في الشارع بعد أن أزاح عني جزءاً من العباءة التي قد تحجب نظري طالباً مني رؤية ما يراه.

مجموعة من عجلات عسكرية لجيش الاحتلال تتوزع هنا وهناك وجنودها يصوبون أسلحتهم صوب الناس التي ابتعدت عنهم، أراد مني رؤيتهم ورؤية وحشيتهم في التعامل مع الناس وهم يدعون الإنسانية وحقوق الإنسان... أراد أن تكون لي ملاحظاتي وتصوراتي التي انقلها للآخرين عن زيف ما يدعون ومايروجون له من أكاذيب.

وجد صديقاً له وقف قربنا وكان حديثهم عن ضرورة كشف حقيقتهم للعالم... ظهرت طائرة تحوم في الأجواء... نظر الجميع إليها:

- إنها طائرة الاباتشي... احذروا منها...إنهم قتلة، قال نمير ثم جرني صوب جدار البيت القريب من محل وقوفنا.
- إننا نعرفهم ونعرف ساديتهم.. لكننا لا نوجه سلاحاً صوبهم كي نخاف ردة فعلهم، رد سعيد وهو يتحرك معنا صوب الجدار.

مارة هنا وهناك وقفوا يستطلعون سبب وجود جنود المحتل بين شوارعهم وبيوتاتهم.

كان نظري يتجه صوب الاباتشي التي تحوم فوقنا.. شعرت بالخوف على جنيني المتقلب بين جنبات أحشائي بفعل أصوات الطائرة والعجلات.

أوقفني نمير على أرجلي ودخل مع سعيد في حديث عن جرائم المحتل وضربه لكل المواثيق والأعراف الدولية والسماوية... أخذهم الحديث ونظرات الجنود تتطاير شرراً.

اقتربت الاباتشي فوقنا أردت أن اطلب منهم الرحيل، اتجهت بنظري لأحذرهم... تأخر صوتي في الوصول إليهم.

وصلتهم طلقات الاباتشي قبل كلامي... تحول المشهد دخاناً ودماً وأجزاء أجساد تتهاوى هنا وهناك... امتلأ المكان لحماً

ودماً ودوياً كثيفاً... اخترقت الطلقات المتفجرة إنسانية المكان فحولته إلى حضور شامل للقتل والإرهاب والوحشية والسادية والخراب والتدمير.

أفقت من هول الصدمة المدمرة العاتية لأجد نفسي مرمية بين كِسر الأحجار والدماء... كانت عيوني لم تزل مصوبة تجاههم... نمير وصديقه سعيد مرتمين والدماء تتفجر منهم... أناس من المارة كانوا معهم، وطلقات طائرة الاباتشي تستمر بالهطول فوقهم محيلة كل شيء إلى ركام.

ابتعدت الاباتشي قليلاً... توقف انهمار النيران... أسرع أناس كانوا يحتمون على بعد نحو الأجساد الممزقة... حملوا من كان فيه نفس... دب أملٌ في نفسي، كان نمير وصديقه سعيد ممن حملوا بغية إنقاذهم... ركضوا بهم صوب السيارة القريبة...عيوني معهم...وصلوا السيارة ليتجهوا إلى اقرب مشفى...لاحقتهم قنابل الاباتشي التي عادت مسرعة لتقتلتهم مع منقذيهم... حولت الجميع إلى أشلاء تتناثر مع صفائح السيارة المتفجرة...قتلتهم وقتلت من أراد إنقاذهم.

لم يتبقى لي شي... يئست من الكل... لم يتبقى لي ما يشدني للحياة سوى جنيني الذي لابد لي من ولادته ليشهد للعالم اجمع على كذب المحتلين وزيف ما يدعون...ليشهد على وحشيتهم وساديتهم...ليشهد على إنسانيتهم التي تسوغ لهم قتل

الأبرياء بدعوى الاستباق..لتشهد على خوفهم من الحقيقة التي قد ينقلها صحفي ما.

انقضى المشهد المروع والموت يلف الجميع... ولى المجرمون بعد أن تأكدوا أن لا حياة بقيت هناك... كنت أنازع بين الموت والحياة وأناشد نفسي على البقاء لحين الولادة... اجتمع الناس ونقلوا الشهداء ووضعوني معهم بعد أن تكسرت عدساتي ولم تعد تصلح للتصوير مرة أخرى.

اخرجوا جنيني (شريطي) من بين أجزائي المتهالكة بفعل القصف والتدمير فوجدوه سالما وفيه تسجيل كامل يشهد على همجية المحتل وإصراره على قتل الصحفيين.

رجل من رجالات الملك

اختاره الملك ليكون ضمن رجالاته الذين يعتمد عليهم في تنفيذ إشغاله الخاصة التي تحتاج إلى السرية في تنفيذها بعيداً عن عيون الصحافة و انبهار العامة، تعارفا قبل أن يتولى الملك ولاية العرش، كان طالباً يدرس الشريعة حيث كان ولي العهد يحضر معظم الدروس، أعجبه فيه صدقه، أخلاصه، ذكاءه... والتزامه.

صار محسوباً على العرش... كلمته مسموعة وأوامره مجابة.. يحظى بالاحترام فاحترامه من احترام العرش... أطلقت يده مرات لمعالجة شتى القضايا والمشكلات فلم يبخل في معالجتها بأسرع وقت... لم تلهه يوماً واجباته تجاه رب عمله عن واجباته تجاه خالقه... ملتزماً بالفروض يؤديها في أوقاتها... بسيطاً محباً للخير متسامحاً في تكوينه، إلا أن طبيعة عمله تفرض عليه الشدة والقسوة والحدية التي هي الظاهرة للعيان على الأغلب.... الناس تخشاه وتتحاشاه فغضبه غير محمود العواقب...فان زار مدينته يوماً توقف السير في الشارع الذي يمر

به... الكل يبدي الاحترام له.. تجنبه مفضلاً وإرضاءه حتمي.

تغيرت الأحوال وانتقلت البلاد من الحكم الملكي إلى الجمهوري..نفي الملك بعيداً ، و قتل من قتل وشرّد من شرّد... أما هو فعاد إلى أهله وانزوى بعيداً عن الناس...لا يرونه إلا حين يعبر الشارع الفاصل بين داره والمسجد ليدخله فيصلي ويرجع إلى انزواءه... مرت الأيام وأعيد تعيينه مدرساً في إحدى مدارس بلدته... باشر عمله الجديد حانقاً غير راضٍ:

- لم أُقدم إلا كل خير... لم أؤذي أحداً... هي طبيعة عملي التي كانت تحتم علي الانفصال عنهم والترفع قليلاً عن واقعهم... أي منهم لن يحتمل ما كنت فيه... كان سيعوم ويطفو... كان سيستغل ويفعل ما يحلو له... لماذا...لماذا هذا النكران... لماذا هذا الجزاء... لماذا الإصرار على الإذلال... لم أتوانى عن أية عبادة... صليت وصمت ولو سمح لي كنت حججت... التزمت ولم أحيد.. ثم ماذا... هذا هو جزائي بعد كل ما قدمت... مدرساً في مدرسة عجوز حُكّت جدرانها وظهرت لبنات بنائها... بين أولاد يهرجون ويمرجون ولا يصمتون... انه لجزاء مقيت.

لم يستطع الاستمرار في العمل...ازداد ابتعاده عن الناس، الجميع يشعر بحنقه على ما آل إليه وضعه... يشعر وكأنه

شجرة كان الناس يستظلون بها وما إن حل الخريف وسقطت أوراقها راحوا يشعلون النار فوق جذورها.

بلغ حنقه على أشده... اعتبر ما يجري له عقابا ألهياً :

- لما هذا الجزاء... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان... وهل قدمت سوى الإحسان... إن كان الملك ظالماً فما أنا إلا موظفاً كغيري في هذه المملكة المترامية الأطراف... ألم يحقق وجودي عند الملك مصلحة للناس كنت احرص على فعلها مع ما يمكن ان تجلب لي من ضرر...لما هذا الجزاء.

لم يعد يذهب للمسجد...انزوى داخل بيته...لم يعد له وجود بين الأحياء... تنبه إمام المسجد لتغيبه..سأل عنه.. قالوا انه مريض... اجتمعوا وذهبوا ليعودوه في مرضه... وجدوه سالماً معافى... استفسروا منه عن تغيبه... وجدها فرصة ليصب جام غضبه عليهم وعلى المجتمع وعلى جزاءه الرباني الذي وجد نفسه يتلقاه بغير ذنب:

- لقد سئمت هذا المجتمع..لا بل إني سئمت الحياة... حياة الدجل والكذب والنفاق..لم يعد لي ثقة بأحوالها... الجميع تخلوا عني... إن الله يعاقبني... ولسوء حظي لا اعلم سبب هذا العقاب..... لقد حكم عليّ بالعقاب لجرم قد أكون اقترفته إلا أنني لا أعلمه... إنني اشعر

أنني أتلقى جزاء فعل ارتكبه غيري... بعد كل ما منحت ها أنا ذا ادفع الثمن...

كان هياجه على أشده.. شعر انه أهان الحاضرين في بيته... أحس انه قد اخطأ وقد يكون في كلامه كفر... إلا انه شعر بارتياح غريب يسري في جسده... أحس بنصر فارقه منذ زمن، كان الجميع يستمع إليه باندهاش... اطرق الجميع رؤوسهم والوجوم يرتسم على وجوههم يتأهبون للنهوض و المغادرة... اتجهت أبصارهم صوب إمام الجامع يطلبون أمره بالنهوض فوجدوه مبتسماً ليقول موجهاً كلامه إليه:

- أما ما قدمت فإنني اعلم والعلم عند الله انك لم تقدم إلا كل خير... واعلم انك كنت على قدر كبير من مراعاة لحق الله وحقوق الناس...إن العمل في بلاط الملك والسلطان فيه ما فيه من خير وفيه ما فيه من شرور كثيرة... كنت ملتزماً تجاه واجباتك إلا أن عملك يوجب عليك التزامات أخرى تجعل الناس تخاف طرفك وتخشى سطوتك.. لذا كانت الناس تتحاشاك لتتجنب شرك وهذا لعمري هو الشر كله ألم تعلم أن أشر الناس من تجنبه الناس اتقاء شره...

كانت عيناه جاحظة تكاد تلتهم إمام المسجد وهو ينصت إليه

- أما الجزاء فقد كان جزاءك جميلاً ومتناسباً مع ما فيك من بذرة خير وعمل أنجاك من وصف الشرور... انك الآن فيمن يوصفون بخير الناس.. نعم ألست مدرساً ينشر علمه بين الناس... الست تنفع من تعلمهم وتدرسهم... الم تسمع (خير الناس من نفع الناس).. انك منهم... لقد أراد الله أن ينقلك من وصف الشر وأصحابه إلى وصف الخير وأهله وهذا جزاء جميل لما فيك من خصال وما التزمت من عبادات... أما ترضى أن تكون من خير الناس... انك اليوم منهم بعد أن عافاك الله من وصف الأشرار... فاحمد الله واستغفره وتب واقبل على حياتك التي أراد الله لك فيها أن لا تستمر على ما لا يتوافق وخصالك...

كانت المفاجأة عنيفة جداً عليه...ذهل من هول الصدمة... كيف كان يفكر وإلى أين أخذه تفكيره... لا بل كيف جارى تفكيره ذاك...كيف ظن كل هذه الظنون...كيف غابت عنه هذه الأمور... أتراه حب الجاه والمنصب والخدم وإصدار الأوامر وانتظار الطاعة والتنفيذ..أم انه قلة العلم ... كيف لم يفكر بكل هذا...

انفجر باكيا ينوح ويعول ويستغفر ويتوب ويصيح:

- استغفر الله العظيم...استغفر الله غفار الذنوب...الهي

لقد ظللت وأخذتني الظنون...الهي ظلمت نفسي وإن لم تغفر لي لأكونن من الخاسرين ... الهي ظننتها سوء العقاب ولم ادري أنها نعمة منك... أردت الخير لي وحسبته شر الجزاء...

عاد للتدريس مندفعا مخلصا لمهنته التي يعشقها لتشهد المدينة أن في مدارسها مربٍ ملتزم محب لتلاميذه، ينشر الخير بين الناس.

ص ب ر

لطالما خالفته في الرأي... أو هو من خالفني، لم اقتنع بكلامه أبداً وكنت احسب خبرته أدنى مما امتلك... وكيف لا اعتقد هذا ويرسخ في ذهني وأنا ابن الباشا الذي يملك أكثر مما يملكه الملك نفسه،وتكويني الثقافي الارستقراطي بمشاربه المتعددة الانكليزية والفرنسية والطليانية... وهو المثقف بثقافة البيئة التي يسكنها.. ابن الفلاح الذي يلتزم رأيه ولا يحيد عنه ما دام يعتقده صواباً، المتمسك بالمثل والأعراف والمبادئ التي لم تعد تساير واقعنا الراهن.

قال لي كلاما لم أعي معناه آنذاك حتى وقعت وقعتي هذه بعد أن دار الزمن دورته العنيفة والسريعة، فها أنا ذا بين جدران أربعة يغطيها طلاء أبيض تحول بفعل خطوط فاحمه لنزلاء كانوا بينها إلى سواد... لا احد معي سوى أفكاري التي كنت ولا زلت اعتد بها وأؤمن بصحة نظريتها التي لم يدحضها سواه... هو صديقي لكن مفاهيمنا تختلف وهذا طبيعي بحكم أنني ابن الباشا وهو ابن (الوكيل) الذي يدير أملاك الباشا.

جربت أشياء كثيرة وعايشت مواقف متنوعة... أردت أن اثبت للجميع وان اثبت لنفسي أنني قادر على الصبر و التحمل الذي يتغنى به أبناء الفلاحين ويعتبروه مزيةً لا يعرفها أمثالي.

ارتديت ملابسهم مخفيا ملامحي ودفعت نفسي بين رهط منهم... اعمل عملهم الشاق كما يدّعون.. أنيط بي ومجموعة منهم تنظيف الشوارع والطرقات المؤدية للقصر...وصديقي يراقبني من بعيد... انه عمل مهين بالنسبة لي... مر اليوم متعبا غير انه كان ذا جدوى... لم أحاول ترك ما طلب مني...ولم اكشف نفسي مع ما مرَّ بي من مواقف مهينه ليس اقلها ما نعتني به رئيس الفلاحين حين لكزني بعصاه قائلاً:

- أسرع يـاابن ( )... ولاتجر نفسك جراً، ضحكت بداخلي وقلت له دون أن أُسمِعه :
- آه لو تعلم من تخاطب أيها المتخلف.

مر اليوم وقناعتي ربحت قدرتي على الصبر والتحمل، أما هو فكان يراقبني وعيونه توحي إليّ بما قال عندما طرحت عليه فكرتي في إثبات قدراتي.

كان كل شيء مختلف...مختلف عما أنا فيه اليوم... تغيرت الأوضاع بسرعة... قامت الثورة.. وصودرت الأملاك والأراضي والقصور... الغي نظام الإقطاع والباشوات... اتهمنا بالخيانة والسرقة والعمالة... هربنا بجلودنا إلى بلاد كنا نأتي لنستجم

فيها... نضبت أموالنا فكان لابد لي من العمل وكان صعب المنال.

وقفت على حصالة النقود استوفي قيمة الطعام السريع النفاذ... كان ازدحاماً شديداً جعلني اخطيء في الحساب.. جاءني مالك المطعم ولكزني بيده صائحاً:

- احسب جيداً وإلا جعلت أمك تدفع الفرق.

صحوت من نوبة الغضب التي ألّمت بي وأنا مرمي في هذا السجن القذر بعد أن طعنت صاحب المطعم طعنات لا أظنه سينجو منها وها أنا ذا اذكر كلام صديقي الفلاح حين قال لي يوما:

(إن الصبر يا صديقي يكون حين تتحمل ما يفرض عليك وإن كان سهلا لا في ما تختاره وإن كان أصعب).

مثالية الحياة

أمسكَ فرشاة الرسم وبدأ يجترح ظهر الورقة المسجاة أمامه بخطوطٍ طوليةٍ وأخرى عمودية، رسم شارعاً اسوداً مستقيماً ترتصف على جانبيه بيوتُ متشابهة... أشجار صفصاف تنتصبُ على طول أرصفته، تفصلُ بينها مسافاتٍ متساويةٍ، كان الشارع نظيفا وأرصفته مطلية بألوان جديدة.... لم يعجبه رسمهُ، كان فيهِ عيوباً أراد لها أن لا تتواجد في لوحته... همس لنفسه:

- إن كنت أريد الفوز في المسابقة فلابد لي من رسم لوحة لا عيب فيها.

أسجى ورقة رسم جديدة أمامه بعد أن رمى الأولى ورسم شاطئا صافيا ورمال مستسلمة تزحف الأمواج على ظهرها... رسم شجرة هنا ومظلة هناك... أناس يسبحون وأطفال يلعبون بالرمال...أشرعة ليست بعيدة لمراكب صغيرة... أرائك كثيرة موزعة على طول الشاطئ تحتضن عذارى اختطت الشمس

نهاية لباسهن على الجلود الغضة الممتلئة...

كثرت التفاصيل فظهرت عيوبا في اللوحة..تذكر كلام معلم الرسم :

- نريد من كل طالب منكم أن يرسم لوحة للحياة... الحياة الجميلة..وسنختار ثلاث منها للمشاركة في معرض الرسم في العاصمة.

ازداد إصراره في أن تكون لوحته الأولى... كان رسمه جميلاً...لولا عيوبا ظهرت باحتدام تفاصيلها... لَمْلَمَ الورقة بكل ما تحويه وجمعها في باطن يده ورماها أرضاً ليقدم ورقة أخرى على مذبح الرسم ليرسم عليها لوحة الحياة...أراد لها أن تكون بلا عيب...أن تكون مثالية فيضمن فوزه.

رسم وخط ولوّن...استخدم مسطرةً و فرجالاً وأدوات هندسية... كانت لوحة جميلة للحياة بألوانها الزاهية وطرقها المستقيمة ودورها المتشابهة الجديدة ذات الطلاء المتناسق، وأناسها المتأنقون و الملتزمون بخطوط سيرهم... وبتسريحة شعرهم وابتسامتهم... كانت لوحة مثالية للحياة...نظر إليها كثيرا...حاول جاهدا أن يجد أي عيب فيها قد يجعلها تتأخر عن الفوز..نظر وأعاد النظر... اقتنع أخيراً إلى أنها لوحة الحياة المثالية.

أبكر في الذهاب إلى مدرسته يتأبط لوحته بحنيه...علّق

لوحته بين لوحات الطلاب على جدار المدرسة...كانت اللوحات بقرب بعضها البعض... نظر حوله، كانت جميع اللوحات تطفح بالعيوب... الناس فيها من كل لون... مشاكلهم برزت واضحة للعيان... هنالك مساكين تراهم بين خطوط اللوحات، ومحرومون...أناسٌ كادحون ومهمومون... فقراء و نصابون... أناس يلمع ثرائهم.. وأناس يفترشون أرصفة الطريق... شوارع متعرجة وألوان جدران باهته وبيوت قديمة... هنالك شطئان متروكة وأشرعة مراكب متهرئة... أطفال يبيعون الأكياس والمناديل... لوحات فيها ابتسامةٌ تبعت كد وتعب وإرهاق... فرح بعد عسر ومرح بعد تعب... وأخرى لأناس يصلون في الجوامع والبيوت وعلى مقربة منهم أناس آخرون يصلون في الكنائس .. نفر يكّتفْون أيديهم على صدورهم في الصلاة مستسلمين لربهم ونفر بالقرب منهم يتركونها تنزل باستقامتهم واهبين أنفسهم لخالقهم، مبتهلين عابدين.

كانت لوحات جميلة إلا أنها حوت على أشكال مختلفة وأحوال شتى... لم تكد تقترب كل اللوحات من مثالية الحياة التي أرادها في لوحته... صار يقينه ثابتا أن لوحته هي الأولى..

حضر المعلم ومعه لجنة اختيار اللوحات الفائزة... نظروا إلى جميع اللوحات... تفحصوا كل واحدة منها... وقفوا كثيرا أمام لوحته وتبادلوا النقاش حولها... ذهبوا لغيرها وتفحصوها جيدا

وناقشوا محتواها...عادوا إلى لوحته ثم غادروها إلى غيرها... انتهى وقت العرض والفحص والاختيار...

وقف معلم الرسم ولجنة اختيار اللوحات من حوله ليعلن فوز ثلاث لوحات بالمسابقة لم تكن لوحته من بينها... تفاجأ واستغرب...رفع يده وهمّ ليتكلم لكن معلم الرسم جعله يغير قناعته حين قال للجميع:

- إن جمال وروعة الحياة يكمن في عيوبها وان مثاليتها تنبع من تشكلها.

مغارة السعلوة

موجة برد وقشعريرة تسري في أجسادنا الغضة لذكر السعلوة ومغارتها المحفورة في واجهة الجبل المقابلة لقريتنا عبر النهر، بينما ينهمر المطر عنيفا خارج غرفة الضيوف أو الربعة (كما نسميها في قريتنا)، في دار جدي المنهزمة بعيدا عن باقي غرف الدار، معلنا انتصاره على ما تحويه هذه الأرض من كائنات حية ليغسل درنها ويسقيها، لتبدأ حياة جديدة مرة أخرى.

تجمعنا أخوة وأولاد عم وأقارب كعادتنا في مثل هذه الأجواء لنتحلق حول موقد الحطب الملتهب المرمي في وسط ربعة جدي والدخان يسبح في فضاءها لنستمع لأحاديث جدي الضارب بعيدا في السن حتى ليخيل لنا انه بعمر هذه الأرض.

- أيهما اكبر سنا يا جدي، أنت أم مغارة السعلوة... قال سلمان أو (سلوم) كما نسميه ليعيد الحديث بنا إلى موضوعنا الشيق والمخيف لمعظمنا في هذه الأجواء الماطرة.

لم يلتفت جدي إليه بينما كان يدفع عيدان الحطب التي أكلت نار الموقد أطرافها القريبة ولم تعد تصل إلى امتداداتها

البعيدة وكأنها تهرب بعيدا منها، ليرميها وسط ألسنة النيران. كأنه كان يستجمع ذاكرته فيملؤها ذكريات موغلة في القدم مرخيا سدادتها لتندلق فوقنا فتغرقنا بشتى الأحاديث.

- المغارة اكبر يابني... وهي موجودة بوجود هذا الجبل الذي يلفها.. وإنني لأذكر جيدا وجود هذه المغارة عندما كنت صغيرا لاكتشف بعد ذلك مغارات أخرى كثيرة على طول هذا الجبل.

صعقنا تصريح جدي لنا بوجود مغارات أخرى، إن هذا يعني وجود سعالي أخرى، ولطالما حدثنا جدي عن مغارة السعلوة المقابلة لقريتنا الرازحة على ضفة النهر المقابلة للضفة التي يتمدد على طولها الجبل الذي يفغر باتجاه قريتنا فما مظلما لا أسنان فيه هو مغارة السعلوة، إلا انه لم يسبق أن صرح لنا بوجود أخرى غيرها.

- هل توجد مغارات أخرى يا جدي...سأل (عجيل) بصوت مرتجف يدل على خوف شديد جعله يلتصق بحمد الجالس جنبه.
- نعم الكثير منها..فانتم لا ترون إلا تلك المواجهة لقريتنا..أما الأخريات فهن بعيدات قليلا..أو في الجهة الثانية للجبل. أجاب جدي وقد أحس بخوف عجيل وخوفنا جميعاً.

قصف الرعد بقوة محدثا دويا شديدا رافقه برق دهمنا لينير جوانب الربعة المظلمة لتتحول ضلالنا إلى أشباح تتراقص يمينا وشمالا. ازداد خوفنا وعيوننا ترقب جدي الذي أراد أن يخفف من هلعنا قائلا:

- سينمو كمأ كثير هذه السنة وستشبع بطونكم منها...
- هل هنالك كمأ ينمو على ضفة الجبل يا جدي...، سأل كريم أو(أكريم) كما يحلو لجدي تسميته، جاهداً في محاولة الهرب من الحديث عن مغارة السعلوة، إلا انه لم يفلح بالابتعاد عن الجبل.
- نعم هناك ينمو أكثر من أي مكان، فقليل من البشر يدوس تلك الأرض مما يجعل الكمأ ينمو ويتكاثر، واذكر أنني عندما هربت من القرية إلى هناك قبل سنين كثيرة كنت آكل منها، ولولا وجود الكمأ آنذاك وما ينموا معها من نبات لمت من الجوع..فاجئنا جدي مرة أخرى وكأنه يدلي باعترافاته الأخيرة ليريح ضميره.
- وهل بقيت هناك فترة طويلة يا جدي...وأين كنت تنام..هل بقيت في الليل هناك وهل رأيت شيئا..، سأل حمود الذي طالما كان يروي للأطفال الأصغر منه سناً كيف انه سبق أن ذهب سابحاً إلى مغارة السعلوة

ليجدها مريضة فيداويها ويشد جرحها، وكيف انه تحدث معها كثيرا مما جعلها تطلب منه أن يبقى معها ويتزوجها إلا انه رفض فتركته يعود بعد أن لحست جبينه، وكانت أسئلته لجدي بدافع الحصول على تفاصيل جديدة يضيفها إلى روايته التي يضحك لها الصغار كثيراً.

- بقيت فترة تقارب الشهر...، صمت جدي لحظات ليتابع كلامه سائلا، ولكنكم لم تسألوني عن سبب هروبي إلى هناك...
- لماذا هربت يا جدي..، بادر نبيل بالسؤال مستعجلا يستحث جدي للإجابة عن أسئلة حمود.
- عندما كنت شاباً اتهمني شيخ القرية بدم ابنه الذي وجد مقتولاً عند شاطئ النهر، ولأنني لم أكن الفاعل ولمعرفتي باستحالة الدفاع عن نفسي هربت إلى الجبل وبقيت هناك لحين معرفة القتلة وكانوا ولدين من القرية المجاورة لقريتنا في زيارة لخالتهم المتزوجة في قريتنا، نزلوا النهر يسبحون حيث يسبح ابن شيخ القرية قربهم، فحاولوا مراودته ولما مانع قتلوه، ولأنني كنت الأكثر تواجدا عند الشاطئ اتهموني بقتله، فهربت إلى أن اعترف احد الشابين بالفعل الذي اقترفوه.

- أين كنت تنام يا جدي..، أعاد حمود سؤاله.
- كنت أبقى في النهار متخفياً بين الأشجار على طول ضفة النهر، وعندما اشتاق لقريتي اصعد إلى قمة الجبل وانظر إليها، أما في الليل فكنت أنام في مغارة السعلوة. قال جدي كلمته الأخيرة وهو يتفحص وجوهنا ليرى ردة الفعل المتشككة فيها.
- وهل رأيت السعلوة يا جدي..سأل سلوم.
- لا لم أرى السعلوة بشكلها الذي سمعتم به.ولكني شممت كثيراً رائحتها وأحسست بوجودها معي. كما أنني رأيت حيوانات أخرى كثيرة كادت تلتهمني في أوقات كثيرة إلا أن هذه الحيوانات كانت تبتعد بوقوفي بوجهها وعدم الهروب أمامها، أما السعلوة فهي شيء مختلف، انك لا تراها إلا انك تشعر أنها معك وتحاول افتراسك بين لحظة وأخرى، إنها لا تتركك، فهي تجعلك تشعر بصعوبة مجاراتها واستحالة التخلص منها، فتترسخ في ذهنك فكرة واحدة هي أن تكون في بيتك لتتخلص من هذا كله، إلا انك وفي لحظة من هذا التوهان والخوف الوخيم تشعر براحة غريبة تسري في أعماقك لأنك لم تكن في بيتك الآن، أصبح كلام جدي أكثر حدة ونبراته تنم عن الم بعيد في الأعماق.

نمنا في أماكننا قرب بعض، وكثيرا منا بقيت عيونه مفتوحة يترقب البرق الذي يغشانا بين لحظة وأخرى بينما يستمر انهمار المطر لينمو و يكبر كل شيء بعده.

سنين كثيرة مرت، مات جدي وحزنا كثيرا لموته، اختفى من حياتنا إلى الأبد، وبقيت مغارة السعلوة بمواجهة قريتنا.

تجمعت غيوم سوداء كبيرة سدت الشمس علينا، فأمطرت السماء على قريتنا مطرا احمرا ثقيلا هدم كثيرا من بيوت قريتنا، تواصل المطر أياماً وليالي، لم نعد نفرق بين الليل والنهار، كان هنالك مطر في أماكن و قرى ومدن أخرى، لتتجمع السيول وتصب في نهرنا الجاري دوما بسلام، وتحوله إلى غول يدهمنا بين لحظة وأخرى.اغرق الطوفان قريتنا وقرى أخرى غيرها، هربنا إلى الجبال بأرواحنا دون أن نحمل شيئاً يحمينا من البرد والليل. نقلنا النهر الذي طردنا من قريتنا على أمواجه المتلاطمة ليقذفنا عند سفح الجبل.

مشينا ومشينا ولما أطبق الليل التجأنا إلى مغارة السعلوة علنا نجد فيها مأوى من الأمطار المنهمرة بقسوة، كان حمود وسليم أو (سلوم) معي أما عجيل ونبيل وكريم أو (إكريم) وبقية أهالي القرية فذهبوا إلى مغارات سعالي أخرى علها تأويهم، ونمنا ليلتنا الأولى فيها، أحسست بوجودها معنا، وشممت نفسها الكريه، وشعرها الخشن ودمدمتها المرعبة،

فبلغ بي الخوف مبلغه، وتذكرت كلام جدي الذي لم افهمه كما لم يفهمه بقية أخوتي وأقاربي آنذاك، (انك لا تراها إلا انك تشعر أنها معك وتحاول افتراسك بين لحظة وأخرى، أنها لا تتركك، فهي تجعلك تشعر بصعوبة مجاراتها واستحالة التخلص منها، فتترسخ في ذهنك فكرة واحدة هي أن تكون في بيتك لتتخلص من هذا كله، إلا انك وفي لحظة من هذا التوهان والخوف الوخيم تشعر براحة غريبة تسري في أعماقك لأنك لم تكن في بيتك الآن)، حمدت ربي كثيراً لأنني لم أكن الآن في بيتي، وأغمضت عيني علّي أحظى بغفوة اصح منها على انكفاء الطوفان عن قريتنا ليعود النهر يجري بسلام ونعود إلى ديارنا.

مركب وشواطئ

مركب صغير يركن على شاطئ البحر العريض تدفعه بين فينة وأخرى أمواج عَتية، يحسبها تريد لفظه إلى اليابسة مرددة نشيدها اليومي صائحةً به (إن مكانك ليس هنا، عليك أن تكون خارج البحر، ان مكانك هو اليابسة)، بينما تجثوا مراكب وسفن وقوارب أخرى كثيرة على طول الشاطئ، تعودت التدافع مع الأمواج المتكسرة على أبدانها منتظرةً قبطانها المختفي في غياهب عالم اليابسة ودهاليزه المجهولة لها.

سئم هذا الانتظار، وملَ النظر إلى المركب الهرم الملاصق له، الأكبر منه في حجمه وعمره بعد ان تحول سطحه إلى منصة يقفز منها الأولاد إلى المياه، سابحين مبتهجين، وهو يترنح صعودا ونزولا مزهوا بفعل لطم الأمواج له راضيا بنصيبه مستسلما لحكم إبقاءه على الشاطئ مركونا كل هذه الفترة الطويلة، حتى بدا انه نسي معالم البحر ونشوة الإبحار على ظهره ممتطيا كل هذه الأمواج المستعدية، التي تدفعه خارجاً.

قرر ان يبحر، ان يقاوم كل تلك الأمواج، وان يفعل ما صنع

من اجله، ان يركب الأمواج ويمتطيها لتوصله إلى شواطئ أخرى، ليرى مياه البحر العالية، وجزره، وليمتع نفسه بالنظر إلى الشواطئ من بعيد، فيزهوا بنظرات المراكب الأخرى عند رسوه في شواطئ أخرى بعد رحلة إبحار طويلة، منتشيا بشعور جندي عاد من ساحات الوغى.

دفع نفسه بقوة مقاوما هجمة الأمواج عليه، تحرك مبتعدا عن الشاطئ، ليعود متقهقرا مضروبا إلى الشاطئ بفعل هجمة موج شرسة أرغمته على الارتطام بخط الفصل بين الماء واليابسة، محذرة إياه من تكرار تحديها.

انتظر ريثما تهدأ الريح قليلا فهي عون الأمواج وسلاحها الضارب في الإبقاء عليه ملتصقاً بشاطئه، وانطلق بهدوء يسري بلطف مبتعداً من غير ان يستفز أمواجاً هنا وهناك، وعيون المركب العجوز الملاصق له ترقبه باحتجاج ولسان حاله يقول له (أين تذهب، لا تبتعد وأرضى بما قُسم لك، انك صغير وضعيف وستتحطم فتكون أشلاءً تتلقفها الأمواج لتقذفها على الشواطئ تجمعك أيادي الصيادين لتدفئ بنارك المشتعلة برد لياليهم الطويلة).

مضى مبتعدا غير مكترثا بأقوال المركب العجوز ونظراته وهو يردد بقوة:

(في أعالي البحر ممتطياً أمواجه، ما كان راكب البحر

في الشطئان)، تلك الكلمات التي لا يعرف كيف صاغها وجمع حروفها بحيث أصبح مؤمناً بها إلى هذا الحد.

قرر ان يتجه بنظره إلى الأمام، نحو البحر، فلا ترتطم نظراته بعيون المركب العجوز الذي يخشى تأثيرها عليه، وكأنها تحذره من خطر عظيم معلوم لديها غائب عنه، مرسلةً له تحذيرات شتى، موحيةً بوداع أخير ليس بعده لقاء.

أخذه البحر بعيداً، بدأت الأمواج تخدمه ليصل إلى الأعالي، وكل ما تقدم أكثر كَبُر الخطر وتعاظم، لم يعد هنالك مجال للتراجع، فما كان عدوا عند الشاطئ وافق ان يكون الآن خادماً، إلا انه لن يسمح له ان يتراجع ليكون عدواً مرة أخرى، فلابد من التقدم إلى الأمام مهما كانت النتائج.

تقدم وتقدم، رأى أهوال وأهوال جعلته للحظات وسط زحام الأخطار يتمنى ان يكون قد سمع كلام المركب العجوز ورضي بقسمته، إلا انه لا يتوانى طويلا، فيسترجع عزيمته مردداً كلماته:

((في أعالي البحر ممتطيا أمواجه، ما كان راكب البحر في الشطئان))

رأى مراكب عظيمة لم يرها من قبل ولا ترسوا في شواطئ كشاطئه، مرَّ بشواطئ كثيرة تنقل بينها من شاطئ إلى شاطئ، أخذه قبطان وقبطان وفرضوا سيطرتهم عليه،

أمكنه التخلص منها، ووهب نفسه لقبطان وقبطان آخرين، بعضهم بناه وزاد عليه وآخر استغله و حمله فوق طاقته، كبر حجمه وازدادت تجربته، أضافوا إليه وبنو فوق سطحه، طلوه بألوان زاهية وبراقة، وضعوا شراعا فوقه، و ساريةً، علقوا بقمتها علما، أصبح معروفا لكل المراكب، خصصوا له ميناءً خاصا به يرسوا إليه.

جال البحر طولا وعرضا، وبعد سنين ليست طويلة، مرّ قرب شاطئه الأول فلمح من بعيد المركب العجوز لا يزال في مكانه، تكسرت أجزاء منه، يخيم عليه الخوف والنسيان، اقترب منه قدر استطاعته فرأى في عينيه نظرات الإعجاب والتبجيل والاحترام.

حكاية النمل

دأبت وإخوتي على الاجتماع لمناقشة سبل التصدي لمستعمرات النمل التي سكنت جزءا من أرضنا الواسعة الأطراف والموروثة عن والدنا المتزوج من عدة نساء.

توافد الأخوة غير الأشقاء إلى بيت الأخ الأكبر(سعيد) الذي يقع وسط أرضه المجتزئة من أراضي والدنا الكبرى شأنه شأن بقية الأخوة الذين اقتطع كل منهم جزءا من الأرض يسكنها هو وإخوته الصغار من أمه وأولاده وأحفاده و يعتاش منها.

اكتمل وصول الجميع وبعد ان قدمت لنا الصحون والأكواب بدأ الكلام الذي جئنا من اجله:

- لابد لنا من الوقوف بوجه الزحف اليومي لمستعمرات النمل التي أكلت الأخضر واليابس، فليس من المعقول ان نقف ونتفرج عليها وهي تعيث بأرضنا خرابا وتعض أبناءنا هنا وهناك عند تقربهم منها ،لابد لنا من التكاتف وإيجاد طريقة للخلاص منها بإغراقها أو إحراقها وان استلزم الأمر إحراق

أراضينا التي حولها لتتحول تلك الأرض التي توجد مستعمرات النمل فيها إلى دخان يصعب العيش فيه. قال زين العابدين، بينما كان الجميع ينظر إليه باهتمام.

نهض سالم وكان الغضب واضحا على محياه وبدأ كلامه واقفا:

- ان سبب وجود هذه المستعمرات وتوسعها هو نحن، فلو كانت وقفتنا صادقة منذ بداية مجيئها لرحلت من أراضينا، ولو كان ما نطرحه في اجتماعاتنا هذه ملزما لنا جميعا لانتهت مشكلتنا، إلا أننا نتكلم هنا شيئا وعندما نخرج نتكلم أشياءً أخرى، لا بل ان قسما منا لا يتورع على التفاهم مع تلك النملات من غير علمنا، إنهم يتفقون معها وكأنها تفهم وتعقل. ان قسماً من أبنائنا لا يمانعون وجودها لا بل أني وجدت قسماً من أبنائي يذهبون إليها ووجدت نفسي حائراً في تواصلهم معها فما الذي يمكن ان تقدمه نملة لهم غير العض واكل الزرع والبقل، فما كان مني إلا وقد أدبتهم وأظنكم سمعتم بما فعلته بهم..إنني أطالب بموقف حازم يتفق عليه الجميع ولا يحيدون عنه لحين الخلاص من هذا الكيان المسخ على أراضينا..

أنهى سالم كلامه الذي لم يكن جديداً علينا، لا بل انه معلوم عندنا، وكلنا نعرف ان سامح وحميد و خالد يذهبون

إلى تلك المستعمرات النملية وهنالك شبه تفاهم فيما بينهم وبين النمل على ان لا تعضهم ولا تقترب من أراضيهم، المهم أننا كلنا كنا نتوجه بأنظارنا صوب سامح وحميد وخالد ننتظر منهم الرد على كلام سالم.

تململ سامح في جلسته وتعدل ثم قال:

- بداية أود ان الفت نظركم وأصحح ما جاء على لسان أخينا سالم في أننا كنا السبب في وجود هذه المستعمرات النملية على أراضينا فأقول لكم وانتم تعرفون هذا، ان السبب هو أسراب الجراد التي غزت أراضينا منذ زمن ليس ببعيد و قبل ان تتقسم الأراضي علينا، وان وجود هذه المستعمرات النملية مثله مثل حصول كل منا على حصته، وكلكم يعلم ان أسراب الجراد بعد ان تركت أرضنا وخرجت إلى أراضي غير بعيده هي التي جلبت هذه النملات وتركتها هنا وهي من يوفر لها الحماية ويرقبها، وكلنا رأينا كيف ان أسراب الجراد عاودت هجومها على أراضينا حينما حاولنا طرد النمل من أراضينا، هذا أولاً، أما الاتفاق مع النملات أو التفاهم معها فهو غير معيب طالما انه يحقق عدم توسع النمل في مستعمراتها وعدم تعرضها لأبنائنا وعضهم، أما ما يخص تعجبه من كيفية التعامل مع النمل فاني لأعجب لتعجبه، ألا يعلم الأخ سالم، وهو يسمعني ان النمل أكثر منا تنظيماً، ثم

أنها تتبع قائداً واحداً تسمعه وتطيعه، وتعمل ليل نهار وبدون توقف لتجمع الحبوب وما يسد حاجتها عند اشتداد البرد ولتحافظ على وجودها، ومن اجل ان تكون مستقلة غير محتاجة لغيرها، ثم أليست النمل هي التي ذكرها الله عز وجل في القران، وارجوا ان لا تفهموا كلامي هذا دفاعاً عن النمل، بل لأبين لكم واقع الأشياء وحقيقتها. نعم لقسم منا تفاهمات مع النمل مع انه يستولي على قسم من أراضينا إلا أنها نصف الحقيقة، والحقيقة الكاملة هي ان هنالك واقعاً علينا التعامل معه وكفانا مهاترات تزيد في خسارتنا وتعرض أبنائنا للعض مرات ومرات. بقي شيء أخير أريد الخوض فيه، لقد طرح الأخ سالم انه عاقب جماعة من أبنائه لاكتشافه تقربهم من النمل وكذا فعلت أنا مرات ومرات واعتقد ان أكثركم فعل هذا مع أبناءه، وأريد ان أسألكم سؤالا : هل كانت عقوباتنا لأبنائنا وإخوتنا الصغار في كل مرة عاقبناهم فيها بسبب تقربهم للنمل أم هنالك أسباب أخرى غيرها كمحاولتهم التخلص من وصايتنا المفروضة عليهم وأيدينا التي تتحكم بهم، أليس هذا هو السبب الحقيقي الذي نخفي وراءه قساوتنا تجاههم فنستغل العداء المتأجج الذي صنعناه نحن في نفوس الجميع ضد كل من يتقرب من النمل لنتهم به كل من يتعارض ومصالحنا الشخصية فنضربه بيد من نار.... أليست

هـذه هـي الحقيقـة...أسـألكم ان تكونـوا صـادقين ولـو مـع أنفسكم ألستم مرتاحون لوجود النمل قـربكم ...تفكـروا جيداً، ان استطعنا ولو أني اشك في ذلك...لو استطعنا طـرد النمل وقلع مستعمراته من الأرض، كيف سنواجه أعدائنا من أبنائنا وإخوتنا الأصغر منا...كيف سنظهر أنفسنا أبطالاً أمام أهلنا وتابعينا...الحقيقة أقول لكم أننـا بحاجـة لهـذا النمـل... على ان لا يهدد وجود أراضينا ونحن نرأس ونوجه مـن يعيش عليها.

جلس سامح مفتخراً بكلامه الذي صاغه بتعابير خطابية جميلة دون ان يتعصب أو يجهد.

ساد الصمت لبرهة من الزمن كادت تطول لولا ان سعيد عاد ليتكلم قائلا:

- باعتباري كبيركم فاني اطرح عليكم أمراً إن شئتم قبلتمـوه وإن شـئتم رفـضتموه وسـنعتمد مبـدأ الأغلبيـة في التصويت عليه باعتباره مبدأ ديمقراطياً لا يختلف عليه احد، إنني اقترح عدم الانجرار وراء شعارات طرد النمل من أرضنا وعدم العمل أو التفكير في الإضرار بها ليس لأنها تستحق ذلك بل من اجل مصالحنا ومصالح أهالينا، فوجودها يعطينا الحق بمحاسـبة أهالينـا أولاً إذا مـا فكـر أي مـنهم في الإضـرار بشخوصنا ومصالحها، فيكفي اتهامه بالتفاهم مع جماعة

النمل لتكون نهايته الوخيمة، هذا من جهة ومن جهة أخرى لابد ان يبقى كلامنا مع أهلنا شاحذا فيهم الهمة لمواجهة عدونا اللدود مغتصب أراضينا النمل اللعين لأنه سبب كل مآسيه وتردي أحواله، أما جماعة الجراد فلن يتقربوا منا طالما أننا لم نلحق ضرراً بالنمل، بل ويمكننا الاستفادة من الجراد عن طريق توسط النمل لنا عندها...هذا هو اقتراحي وارجوا ممن يوافق عليه ان يرفع يده.

أنهى سعيد كلامه ثم رفع يده مصوتاً بقبول القرار لتتبعها الأيادي فينتهي اجتماعنا والأيادي كلها مرفوعة بالتأييد.

حارةٌ مولعة بالشذوذ

أُبتُليَ بجارةٍ لم يزل يعاني جيرتها، تزوجها مرات أو تزوجته، طلقها مئات المرات، فيها شبق أسطوري نحو رجولته المتفجرة منذ نشأته، حاول التهرب منها مرات ومرات، ووقع في انثيالات عشقها المتجدد له والمترسب في قعر كينونتها المنقلبة دوما، تزوجها غفلةً وسرعان ما كره منها كل ما فيها، ففر منعزلا نحو داره الملاصق لمسكنها المحال تباعده عنها، لتواصل مراودته حينا وفرض تواجدها في بيته حينا :

- أنت جاري، وأنا أولى بك من غيري... بك أرى جميع الرجال و اشبع رغباتي منهم، ومنك أصل إليهم.

سئم منها ومن حبائل عشقها البائس، حاول استكراه عاطفتها له، ولما تأكد من كرهها بانت له نزعتها السادية في فرض سيطرتها عليه وتلذذها بألمه القاسي الناتج عن انتزاع ما يضمن استمرار شجرة عائلته المودعة عنده أمانةً من أجداده.

حاورها محاولاً إيقاظ ما بقي فيها من عقل يمكنه به

أقناعها و دفعها للتخلص من نزواتها المتمكنة منها :

- لابد لك من طرد هذه الأفكار والوساوس من عقلك... كيف ترضين لي أن أكون معبراً لنزواتك وشذوذك اللامحدود.

دخل معها في صراعات وصراخ ومشاكل لأسباب بسيطة ما تلبث أن تتحول إلى معركة قد تطول لأيام وأيام يستحل فيها الطرفان كل ما يعينه على إلحاق الضرر بالآخر، دافعةً كل أطراف الحي للتوسط بينهم لفض النزاع أو إدامته، فتستعر الحرب ويزداد أجيجها أو تنعقد الاتفاقات وتقام الولائم لتشهد بداية عهد جديد بينه وبين جارته التي ما إن تعود لدارها حتى يعود إليها شبقها المتسلط على تفكيرها، فتنتفض لاغيةً كل ما اتفق عليه لتدور معركة جديدة

- أنا إن تركتك وعدت لداري فذاك لأجل لحظات استذكر فيها أيام عشقنا الماضي وليالينا معاً، فيزداد حنيني إليك.

- لكنك تجبريني على ما لا أرغبه.

- لم تعد تهمني رغبتك... ولا يهمني شكل علاقتي بك، فكل همي أن تكون لي وان انتزع منك ما أريد.

عرِف جيداً مبتغاها، انه شبقها الجنسي لذكوريته، لقوته، لماء رجولته المترسب في دواخله، انه يجذبها نحوه بعد أن جربته

لأيام وليال، انه إدمانها لطقوس شذوذها في حضرته، فتحن لفرض سيطرتها عليه والاستئثار به لنفسها، هي تحلم بأول يوم كان لها، وتستذكر جيدا عسله الذي ما فارق ذائقتها عندما كان تحت سيطرتها، عندما كان لها وحدها قبل أن يتغير ويتخلص من احتلالها لكل تضاريس وثنايا جسده.

لم يألُ جهدا ولا ترك دربا في محاولة التخلص منها ومن شباك مصائدها ولم يفلح معها، فقيمها المتهاوية وتدني أخلاقها وانعدام شعورها بما يحيط بها عندما يتعلق الأمر به، يجعلها تتغاضى عن كل شيء في سبيل إشباع رغباتها.

يأس من شفاء هوسها، فلم يجد بداً من ادعاء مرضه علها تبتعد عنه وتخاف إصابتها لتجد غيره ممن يشبع رغباتها المجنونة.

أوحى لمن حوله إصابته بالمرض... وأي مرض.. انه المرض القاتل و المعدي، الذي لا شفاء منه... انه يصيب كل من يعترض طريقه أو يتقرب منه، وكان لابد من إظهار علامات هذا المرض على نفسه، فادعى وتظاهر وصدقه كل من حوله، أما هي فبقيت متشككة لا تسلّم بكل تأكيدات الناس وما ينتشر من قول لهذا الطبيب أو ذاك الحكيم.

- كيف يصاب بمرض لا طريق لجرثومته في الوصول إليه!

كثر الحديث عن مرضه المخيف واستغلها غرمائه ليشيعوا الخبر ويهولوا الأمر، فابتعد الناس عنه وتعاملوا معه من بعيد، بدأت غربته وشعر بوحشة وحدته التي استحمل قسوتها من اجل تجنب محاولات جارته المتفجرة في تملكه وإضعاف ذكوريته.

عانى كثيراً جراء ابتعاد الناس عنه واتفاقهم عدم التعامل المباشر معه، فانزوى وحيداً في داره حانقاً جارته التي لولا شذوذها الذي يمقته لما كان مبحراً صوب هذا الاتجاه.

صدق أكثر الناس مرضه، فعزلوه في داره ومنعوا زيارته بعد أن منعوه من المغادرة، جلبوا فرق طبية متخصصة وادخلوها بيته لفحصه والتعرف على مستوى إصابته ومدى تغلغل المرض في جسده.

الكل صدق مسألة مرضه إلا هي، فهي تعرفه وتعلم جيدا انه لا يمكن أن يصاب بهذا المرض الخطير فصحته المثالية تجعله في منأى عن كل مرض، وطالما انه لا يستهوي بائعات الهوى وبنات الليل فمن أين لمثل هذا المرض أن يمر إليه.

كانت شكوكها بصدقية مرضه كبيرة لكنها تفضل التأكد طالما أن الأمر يهمها أكثر من غيرها، شرعت تدعوا الناس للتأكد من فرضية إصابته وتهديده لسلامة الناس وصحتهم الهامة.

تصاعدت الأصوات تنادي بضرورة معالجة الأمر، وبحتمية فعل ما يحفظ للناس صحتهم ومنع انتشار المرض الذي بدأ ينفيه عن نفسه بعد أن شعر بالمخاطر المحيطة به، دون تأكيد يزيل شكوك جارته فتنقض عليه بساديتها وشذوذها المتوحش.

وضعوا خطة للانقضاض عليه في بيته وإجراء عملية جراحية له تزيل أعضاءه المصابة بالمرض وليزرعوا له أعضاءً جديدة تمكنه من البقاء على قيد الحياة دون أن يكون فيه أي خطر على الباقين.

- لابد من معالجته قبل أن ينقل عدواه إلى غيره فينتشر المرض ويتحول الحي إلى بؤرة.

هجموا عليه وقيدوه وهي تنظر إليهم، فتحوا بطنه وجالوا فيها شمالاً وجنوباً فلم يجدوا أي مرض اعتقدوه، كان سالماً معافى، وتأكد لهم خطأهم، فبرروا عملهم هذا بوجود خلل في أعضاءه، اقتطعوا قسماً منها فاحدث ذلك نزيفاً مروعاً حاولوا السيطرة عليه فلم يتمكنوا، زرعوا غيرها فلم يدم الوقت عليها طويلاً لتعلن فشلها، ساءت حالته واستسلموا لفرضية خسارته لولا انه اظهر قوةً عالية وأبدى ممانعة كبيرة للموت.

بقيت بطنه مفتوحة وجزءاً من أحشاءه مندلقاً خارج جلده، حاروا ما يفعلون به، فتعالت أصوات تنادي بضرورة الإسراع

بعلاجه وخياط بطنه المتشظية دماً، بينما نادى آخرون بضرورة رحيل المتدخلين وترك مسألة علاج جروحه لهم.

اجتمع أهل الحي و نشب خلاف كبير فيما بينهم وتعالت الأصوات واشتبكت الأيادي والكل يدعي انه هو القادر على معالجة وضعه المتردي، منادياً بترك الأمر له، أما هي فوقفت فوق جسده النازف منددة بما فعلوا بجارها منادية بضرورة الاقتصاص منهم، دافعة بعضهم ضد بعض، تقاتلوا فوق أحشاءه المختبئة في تجاويف بطنه الملقاة على ارض بيته والدم ينزف من كل صوب فيها، بينما راحت أياديها تخترق دماءه المندلقة لتستمتع بشذوذها الجنسي وساديتها.

فرصة الحياة

(سَنمنحْ كلٌ مِنكُمْ فُرْصَتِه).. بهذه الكلمات القليلة الموجزة خاطبهم مأمور السجن. أنفض تجمع السجناء من باحة السجن الرطبة المعتمة تجُرُهم مجموعة من الحراس إلى زنزاناتهم المتعفنة بانتظار شروق نهار جديد ليطلق سراحهم المشروط لفترة من الزمن ولينل كل منهم فرصته، وبعدها يصار القرار بكل منهم على انفراد في أمر إعادته للسجن أو إطلاق سراحه بشكل نهائي.

انطلقت السيارات مع أول ضوء للنهار تدوس ظهر الشارع لتحملهم إلى المدينة التي أُتُفِقَ على أن تكون مكان تواجدهم خلال فترة سراحهم المشروط... انتشروا في المدينة.. وجد كل منهم مكان يأوي إليه إلا هو... بقي في الشارع، يأكل ما يجود به الناس عليه...ينام على الرصيف...يسرح بعيدا ويفكر في ما سيقوم به عندما يمنح فرصته.. كيف سيبني ويعمر.. سيجعل من هذه البلدة مكان آخر... سيشتري طائرة خاصة به

فلا يمر بهذه الشوارع القذرة وسيمتلك يختاً بحرياً يجمع على ظهره جميلات العالم ليطوف موانئ العالم.. وسيحرص على أن يُشَغِل جميع زملائه السجناء عنده.

نفر منهم عمل في تبليط الشوارع ونفر آخر في البناء... احدهم وجد عملاً في مصنع والآخر يبيع الخضار في محل كبير... مرّ أكثرهم به، سألوه :

- كيف حالك حرجان.. لِمَ لا تعمل....تعال معنا.
- أنا بانتظار فرصتي... لن أقدم على شيء حتى تأتيني.. انتم تضيعون وقتكم... سترون كيف أكون حالما احصل عليها... الجميع تقريباً سمع إجابته هذه.

نجح كثير منهم في عملهم فتكونت عندهم أموالاً كبيرة وأصبحوا ممن يشار إليهم في المدينة... احدهم اشترى محطة للوقود وآخر بنى سوقاً كبيراً بينما عمل سالم في السياسة وأصبح معاوناً لحاكم المدينة، أما هو فعلى نفس الحال وإجابته نفسها عندما يطلب إليه احد أن يعمل:

- أنا انتظر فرصتي.

مرت أيام وشهور وسنين وحاله لا يتبدل، وفي ليلة باردة مظلمة حضروا إليه ورفعوه من على الرصيف الجاثم فوقه ورموه بمؤخرة السيارة.. كان وحيداً.. وجد مأمور السجن بانتظاره... أمرهم أن يحكموا إغلاق باب السجن خلفه..

اعترض وتظلم وصاح:

- - هذا ظلم...ظلم كبير، لم احضى بفرصتي.. لقد وعدتنا...
- تلك هي كانت فرصتك... لكنك لم تستغلها مثل غيرك... ارموه في زنزانته.

وأي مصير للحالمين

كنا نلعب الكرة، موقعي خط الهجوم، استلمت الكرة وهجمت، واجهني فريد اللاعب الخصم في خط الدفاع، حاولت تخطيه لكنه كان ابرع مني، رفسته فوقع أرضاً، امسك رجلي فوقعت... تشاجرنا وامسك كل منا تلابيب الآخر.. ضربته وضربني.. كانت ضربته موجعة... وصل غضبي قمته فسخرت من صمه وبكمه... ضحك الجميع... شعرت أنني اقتصصت منه فانتابتني مشاعر الراحة والسرور، صحوت من نومتي لأجد نفسي بين ثنايا فراشي... استغربت حلمي هذا.. فلست ممن يلعبون الكرة... ولا رابط بيني وبين فريد (الأخرس) سوى رؤيتي له في الشارع فأحييه ويحييني.

قررت أن اعتكف بيتي اليوم لأتجنب ملاقاة فريد عساه ينسى حلمنا هذا أو يحلم به غيري فينشغل عني وينساني، وإلا كيف سأشرح له أو ابرر سخريتي منه في حلم لاشك عندي انه رآه مثلما رأيته أنا بعد أن ابتليت مملكتنا الشاسعة بظاهرة

غريبة وأمر لم يحصل في العصور السالفة احتار لها كل عاقل وخبير، فرح به أناس كثر وارتعبت منها أعداداً أُخر.

- أن ترى نفس الحلم الذي يراك غيرك فيه شيء جميل..لا بل انه نعمة ربانية تقرب البعيد وتوصل المشاعر بين الأحباب الذين استحال الوصل بينهم... يقول سلام أو(سلام العاشق) كما يطلق عليه أصحابه.
- انه أمر خطير أن يرى أحلامك غيرك وان كانت هي أحلامهم أيضاً... لكنها تودي لمشاكل خطيرة مع ما فيها من حسنات، إلا أن حسناتها تلك لا توازي ما قد تسببه من تباعد وبغض وإشكالات بين الأحباب قد تكون أعظم بكثير بين البغضاء.. يرد حليم على سلام العاشق الذي ينصت مستغربا ومستنفرا ليسارع القول.
- إنني بدأت بمحاولة التعرف على أوقات النوم عند أحبائي لأنام بنفس الوقت علّي احضى بحلم يجمعني بهم فاهمس لهم وأبوح وأناجي ثم استمع هديلهم ونجواهم.

غادرت فراشي لأجيب طارق الباب الصباحي وكم دهشت لرؤية فريد الأخرس واقفاً وابتسامته العريضة مرسومة على تقاسيم وجهه الطفولي.

- أهلاً...أهلاً فريد... تفضل، أشرت بيدي له للدخول

ففهم ما أردت قوله مع إنني لا أجيد لغة الخرسان.

- شككككك..را... اممم...ما زززعل...، فهمت من حروفه المتقطعة وإشارة يديه وابتسامته عدم تأثره بحلم الليل المنصرم.

لم أجد كلاماً أقوله له فاحتضنته بين يدي وقبلته وهو يضحك فداهمتني موجة بكاء سيطرت عليها بجهد كبير بذلته، يبدو انه شعر بها فقبلني ورحل.

خرجت إلى السوق ولازال بعضاً من تأثير حلمي مع فريد الأخرس ومجيئه إلى بيتي ملازماً لي... صار منظراً طبيعياً أن ترى من يعاتب هذا على حلم جمعهم مع بعد أماكن نومتهم، فقصّر احدهم تجاه الثاني أو تجاوز عليه، أو تجدهم يتبادلون القبل والأحضان على مواقفهم تجاه بعضهم في الأحلام، بينما تجد أناس يهرب بعضهم من الآخر تجنباً لملاقاتهم بسبب أحلام استحال بعدها تلاقي نظرات عيونهم بعضها ببعض.

اعتادت الناس هذا الأمر فأصبحوا يتندرون به مع أن بعضهم ما يزال يصر إلى أن ما يراه في أحلامه إنما هو رد فعل مباشر لما يخفيه في باطنه وما يتمنى القيام به حقيقة.

استمرت ظاهرة توارد الأحلام ورؤيتها بشكل مشترك بين كل من يتواجد فيها، وانشغلت بها الصحف والمجلات وقنوات الإذاعة والتلفزيون لتورد أخبارها وتبحث في أسبابها

وتلتقي خبراء التحليل النفسي وعلماء النجوم والفلك وأطباءً شتى، أجمع كثير منهم إلى أن حالمية شعب مملكتنا هو السبب الأهم لحدوث هذه الظاهرة.

اعتاد الناس أحلامهم واعتادوا معها أن يصحوا كل يوم على هجرة صديق وهروب قريب بعد أن بدأت ظاهرة أخرى تنتشر في أرجاء مملكتنا المترامية الأطراف، هي ظاهرة اختفاء أناس يزداد عددهم يوم بعد آخر تظهر جثثهم بعد فترة قريبة مرمية على الطرقات وليس من جريمة اقترفوها سوى أنهم حلموا حلماً واحداً كان مَلِكنْا المعظم موجوداً فيه.

وفاءً لفكري

أبكرت هدى في الوصول إلى الجسر حيث يقام احتفال افتتاحه، كانت الساعة تقترب من التاسعة، نزلت من السيارة التي أقلّتها من مدينتها البعيدة تصحبها شقيقتها (نهال)، كان إصرارها راسخاً، أرادت حضور الاحتفال، (انه نوع من الوفاء لفكري)، هكذا ردت عندما طالبها أهلها بالعدول عن حضور الحفل، و(فكري) هذا هو زوجها الذي مات مع صديقه ثائر جراء انقلاب سيارتهم في طريق عودتهم من العاصمة حيث حضروا مؤتمرا للحزب الذي ينتمون إليه، مرت بين كراسي المدعوين جاثية على كرسيها المتحرك تدفعها نهال، اختارت مكانا في الزاوية القريبة تمكنها من رؤية بداية الجسر الموصد بشريط الافتتاح، طلبت من نهال الجلوس على الكرسي الشاغر الملاصق لكرسيها المتحرك، جالت بنظرها على طول الجسر القافز بين الضفتين، كان فرحها كبيرا، (أخيراً تحقق ما حلم به فكري)، قالت لنفسها، تراءى لها خياله يمشي على رأس الجسر، تخيلته يأخذ المقص ليفتتح الجسر، حنت إليه من

جديد، كان دنياها التي تعيش لها، ومستقبلها الذي تتلقفه يوما بعد آخر، سنين طويلة مضت لكنها لم تنسى اليوم الذي مات فيه، حزنت عليه اشد الحزن، وكان عزاءها أن تكون وفيةً له، أن تكون له وحده، لا ترى غيره، اتجهت بنظرها صوب القرية الكبيرة المعتكفة في الضفة الأخرى، كان يمكنها أن ترى البيت الذي جمعها به، تعرفت عليه في الكلية حيث درست التاريخ بينما كان هو يدرس السياسة، أحبا بعضهما، هي من مدينة بعيدة وهو من هذه القرية المحاطة بالماء من جميع الجهات، المعزولة عن الجميع، لا يربطها بالمدن وحتى القرى الأخرى سوى جسر خشبي متهالك يأخذه النهر معه كلما علا ماءه، تزوجته وسكنت بيت أهله، عرفت أقاربه وذويه، أصدقائه كثر إلا أن ثائر كان أقربهم إليه، كانا لا يفترقان، كأن الرابط بينهما روحيا، أفكارهم واحدة، وتطلعاتهم متشابهة، حتى حلم بناء الجسر الممتد أمامها كان مشتركا بينهم، ولطالما سمعتهم يتحدثون بضرورة أن يكون لقريتهم رابطا مع ما يحيط بها من عوالم، نشأت بينها وبين (رجاء) زوجة ثائر صداقة قوية، ويبدو أن متانة علاقة زوجيهما امتدت لتكوّن علاقة وطيدة بينهما.

- رجاء... ترى أين أنت الآن...، قالت لنفسها باشتياق، ثم أردفت:
- هل سعدت بزواجك بعد ثائر... وهل كان اختيارك

صحيحا أم أن خياري هو الصحيح...لِمَ لَمْ يكن وفائك لثائر كوفائي لفكري...

- إيه رجاء أو (رجاء الملا) كما كنت تقدمي نفسك لمن لا يعرفك... لا زلت أتذكر وجهك جيدا... ولازالت كلماتك تترد على مسامعي حين قلت لك أنني سأكون وفيةً لزوجي ولن أفكر بالزواج من غيره وكان جوابك: أن الحياة تستحق أن نحياها.
- زعلت منك وقتها... زعلت كثيراً وانقطعت علاقتنا بعدها... سمعت انك تزوجت من رجل آخر بعد انقضاء العدة ورحلت معه... ترى أين أنت الآن وماذا حل بك... هل وجدت ثائرا آخر أم انك رضيت بالاكتفاء في أن تكوني في ظل رجل... أي رجل حتى لا تضطري إلى حائطا كما يقول المثل.

بدأت الموسيقى تصدح معلنةً وصول الشخصية التي ستفتح الجسر.

- هو رجل أعمال ثري.. وهو من موّل عملية بناء الجسر..، سمعت احد الجالسين خلفها يقول.
- ليس رجل أعمال فقط بل رجل سياسة أيضاً... يقولون انه شخصية مرموقة ويتوقعون ان يكون لها دور مهم في دولتنا..، ردّ آخر.

تمنت أن تكون قادرة على أن تنهض لتقدم شكرها الكبير لهذا الشخص العظيم، لتشكره نيابة عن فكري، وثائر وحتى رجاء، فالحلم وان كان حلم فكري وثائر إلا انه صار في يوم من الأيام حلمهم جميعا، وكان من الواجب على من بقي منهم أن يشكر من يحققه نيابة عن الباقين.

حركت نفسها في لحظة نسيان محاولة النهوض فلم يحملها جسمها، انكفأت على كرسيها مرددة :

- ليس مطلوبا مني أن أقوم بالشكر فقد وفيت... وفيت لفكري ولم أتقبّل غيره... عرض عليّ رجال كثر مشاريع زواج ورفضت...تحملت ما جرى لي جراء وفائي... رفع رحمي بعد يأس من الولادة... وكيف ألد ولا زوج عندي... كنت أتمنى ولادة صبي يحمل اسم فكري...ولما لم يتحقق هذا فلم تكن لي رغبة أن يحوي رحمي وليدا لرجل غيره... أحس بعدم الحاجة إليه فأعلن احتجاجه ومرض فكان لابد من رفعه.... قص احد أثدائي بعد مرضه فلا جنين يمص لبنه، وها أنا ذا تشرف سنوات عمري على خواتيمها، لا استطيع النهوض، وأعتمد على شقيقتي نهال التي أقعدتها من الزواج لترعاني.

انقطعت الموسيقى، صحت من شرودها، مدير الحفل

يرحب بالجميع من خلال مكبر الصوت، أدارت رأسها ناحية منصة الخطابة عند رأس الجسر القريب منها.

- يتفضل السيد برهان اسكندر المحترم.. السياسي المعروف ورجل الأعمال الناجح... ممول مشروع إنشاء الجسر وصاحب الفضل في إقامته في قص شريط الافتتاح.

أجهدت نفسها كي ترى محقق حلمهم، رجل أنيق همته عالية، تبدو همة الشباب على حركاته، ارتقى إلى المنصة ليلقي كلمته والأنظار تتجه صوبه، رفع يده محييا الحضور فعلا تصفيق حاد:

- بداية أود أن اشكر لكم حضوركم وترحيبكم هذا، لقد كنت فيما سبق تنحصر أعمالي بما يعود علي بربح، وكنت لا اهتم لإقامة عمل يخدم غيري طالما لا يحقق لي ما اصبوا إليه من أرباح ترضيني... إلا أن شخصا عزيزا علّي غير من قناعاتي هذه وجعلني أؤمن أن خدمة أهلي ونيل رضاهم هي أقصى ما يمكنني أن احصل عليه من أرباح، فكان مشروعي في بناية هذا الجسر هو البداية لما آمنت به..واعدكم بأنني سابني مشاريع أخرى تخدمكم.... وقبل أن افتتح الجسر اسمحوا لي أن أقدم لكم صاحب فكرة بناء

هذا الجسر، الشخص المتفضل علّي في كل نجاحاتي والسبب في ما أنا عليه اليوم ....، (طغى صمت يعم المكان في انتظار معرفة الشخص الذي كان له الفضل في إقناع الرجل ببناء الجسر)، اسمحوا لي أن أقدم لكم صاحب فكرة بناء جسركم هذا... زوجتي رجاء الملا.

تاريخ جديد

رسالة صادرة أولى:

عزيزي وصديق طفولتي سامي..

ها أنا ذا اكتب إليك بعد انقطاع طويل لأبث لك من خلال رسالتي هذه ما ألم بحالي وكيف دارت الأيام بي، إنني في اشد الحاجة إلى التحدث إليك بعد أن وجدت نفسي وحيدا لا احد قربي يستمع لي ويتفهم معاناتي.

صديقي الطيب...

من كان ليصدق ما يحصل لي الآن.

سنة واحدة مرّت، واحدة لا غير وها أنا ذا تقترب قناعتي من الإقرار بصحة ما كنت تقوله لي. لطالما سمعت كلامك ذاك، قلته كثيرا وان كان الكثير منه لا يوجه إليَ مباشرةً، لكنني سمعته كثيراً، من سنين وأنت تردده، سمعته حينها وأقنعت نفسي بتورطك مرةً و ضحكت منك مرات، نعم ضحكت، لا اعرف لماذا، أو أنني كنت اعرف، أما الآن فلست ادري بالضبط لِمَ كنت اضحك آنذاك، فالأمر يبدو لي اليوم ليس مضحكا كما اعتقدته، جل ما كنت تطلبه مني هو أن أتزوج من جديد،

واذكر انك أخبرت أصحابنا حينها ، قلت لهم انك تريدني أن أتزوج، نعم أتزوج... أتزوج فقط، وقلت لهم الزواج شيء جميل، ولا زلت اذكر تساؤلك إليهم : قولوا لي بالله عليكم ما بها هذه الفكرة، زوجة جديدة، صبية، قد تكون ابنة ميسور، أو رئيس، أو تكون أميرة، ابنة ملك، ماذا يكرهك فيها، وقد تكون ثرية فتغدق عليك بأموالها، رفضت...نعم رفضت أنا وبشدة، ليس لأنك أنت من طلب مني هذا ولم أقم به من ذاتي، لكنني رفضت لنفسي هذا الفعل، رفضت لها التفكير به، نعم مجرد التفكير، ضحك قسم منهم حينها، وانبريت ادفع عن نفسي قائلاً: مهلا... مهلا... ستقولون يخاف امرأته، وقد تقولون رجل مسحور، ولا استبعد أن تقولوا: أمره ليس بيده، انه يخاف بطش امرأته، هي شديدة، قاسية، فهي توقفه بعصا وتجلسه بغيرها، واستبعد إقراركم بحبي لها، أو بحسن أخلاقها، واستحالة تسليمكم بجمالها، وسأطاوعكم كل ما ترمونني به من اتهامات، لكن ألا يكفي عيشي معها بسلام سنين طوال، وحنيتها علي في أن لا أبارح ودها.

أما اليوم وقد تغيرت أحوالي، بعدما توفيت زوجتي أثر مرض مميت أصابها، وأنا الآن في حيرة من أمري، آه يا صديقي الطيب.. ليتك تكون قربي فتسمع مني، و ترشدني. شوقي إليك كبير وسأكتب إليك رسالة أخرى أعلمك بما قد

يكون من حالي، تقبل تحياتي والسلام.

رسالة صادرة ثانية:

صديقي العزيز سامي..

اكتب إليك مرة أخرى كما وعدتك لأعلمك بما صارت إليه أحوالي.

ها قد صار شعوري من موقفك وما طالبت به اقرب للإقرار بصحته، حقا أقول لك ولا اخفي سراً: كلما فكرت في ما مضى من عمري مع زوجتي (عليها رحمة الله) ينتابني شعور بانعدام الثقة، الثقة بعقولنا التي تتغير قناعاتها بتغير ما حولها، بتأثرها بما تصل الحواس إليه، تتغير بتغير بيئتها التي تتحكم فيها.

اعرف انك ستقول أنها سنة الحياة، وأقول نعم هي سنة الحياة، الموت... والحياة..حتى الزواج هو من سنن الحياة، وستقول قد زال المانع من زواجك، مهما كان المانع، زوجتك ماتت، وما كنت تعتبره محرما قد حل لك، وستضيف بنبرتك الجازمة: لا عذر لك اليوم، لابد لك من أن تتزوج، أم انك ستبقى بدون امرأة وتعيش حياة العزوبية من جديد، ستضغط علي وتصر، وان جابهتك ستتهمني بأفظع التهم، وقد تقول أنني مجنون، اعرف أني احتاج إلى من يعيلني في كبري، واقر بصعوبة حياتي ومتطلباتها اليومية، وأؤمن أن الحياة تستحق أن

تعاش، وان الحياة ستستمر.

تريد الحقيقة....!، إنني اذهب معك في كل ما تقوله، واعتقد جازما أن الحياة لا تتوقف على شخص، وهي ستستمر، لكن... إن ما يمنعني من الزواج من جديد أمر آخر غير المرأة التي سأقترن بها، وغير ثرائها وجمالها، وليس هو مقدرتي على أن أفي بما يوجب علي تجاه من أتزوجها، إن زواجي من جديد يعني أن أبدأ من جديد، انه يعني أن أزاحم من هم بعمر أولادي على باب طبيب الأطفال، أن أكد واتعب كي لا يكون أطفالي الجدد بأقل من مستوى أقرانهم، وهو يعني أيضا أن أتعامل من جديد مع القابلة، وان اصبغ شعري كي لا تشعر زوجتي بهرمي، وان أجاري ذوقها الصبياني، وانشد شعرا جديدا لمراهقٍ غنته مطربة صاعدة، أن اسمع أغانيها التي تعشقها واطرب لها.

هل تعرف معنى هذا، أكيد انك تعرفه فأنت من جرب، وأنت من نادى بان أجرب... ولكن لكل منا قناعته التي لازال لها تأثير.

لا تجزع مني فليس لي احد اكلمه، سأرسل إليك أن جد شيء جديد.

تقبل مني أحر سلام.

رسالة صادرة ثالثة:

خازن أسراري واعز أصدقائي ...

كل التحايا الجميلة مني إليك، اعذرني لتطفلي على حياتك وعلى لحظاتك الجميلة التي تحياها، لكنني أصر على أن أبثك مشاعري وأحاسيسي بعد أن اقتربت من التصديق بنظريتك.

بداية أكاد اعرف ما تقوله عني، وأؤيدك في أنني لست أول من فقد زوجته ولست الوحيد في هذا، لكنني اختلف عن أكثرهم، اشعر أنني لم اعد اعرف وجهتي بعد أن وصلت منتصف الطريق، هل أعود لأحدد جهةً امشي إليها، أم أقف وانتظر هنالك عسى أن تظهر لي جهة أصل إليها... أو قد يصلني الموت، لست كبيراً فأقول أن حياتي قاربت نهايتها وعلي أن اسلم لها واستكين بانتظار ساعة أفولها، ولا أنا في بداية عمري وريعان شبابي فأعيد بدايتي وان كانت متأخرة قليلا عن أقراني، أيمكنني أن ابدأ من جديد، وكيف سأبدأ، لي أولاد وبنات، وحياة طويلة لا زلت أعيشها، انه تاريخ طويل، هل يمكن لأحدنا أن يمحي تاريخه، أو يستبدله، هل يمكن تغيير مساره، أيمكنني أن أغير مسار حياتي وأتزوج من جديد، أن ابدأ دون مراعاة ما سيكون، أم أبقى متمسكاً بقرار أخذته في حال أخرى غير حال اليوم،

إنني لا أخفيك سراً أن قلت لك أنني لا زلت اعتقد صواب قراري في تلك الحال، أما اليوم فكن متيقناً أنني لست متأكدا من شعوري تجاه أي شيء آخر، لكنني اعرف جيدا أنني متأكد من خطأ البقاء على ذاك القرار.

تقبل مودتي وانتظر ردك على ما قررت.

رسالة واردة:

السيد سامر المحترم، هذه الرسالة تصلك من مكتب البريد:

يؤسفنا أن نعيد إليكم رسائلكم الثلاث المرسلة إلى السيد سامي ويؤسفنا جدا أن نعلمكم أن سبب عدم تسليمها إليه هو مقتله على يد زوجته الثانية التي اكتشفت علاقته السرية مع امرأة ثالثة، تقبل تعازينا.

بيجي ٢٠١١

آبائنا القرود

ماذا تفعل لو تحول أبوك قردا، قد يكون الأمر من ضروب الخيال، وقد يكون طرحه عقوقا بحقوق الأبوة، و قد تكون فكرة السؤال منفرة، لا بل وحتى مزعجة، لكن صدقوني هذا هو ما حصل، صحونا من نومتنا لنجد أبي وكل عمومتي قد تحولوا إلى قردة، فزعنا، رهبنا، كذبنا أعيننا، ركضنا هاربين، جن أخ لي، وابنة عمي صرعت، لم نصدق ما نرى، أبانا يصبح قردا، وكل عمومتنا. ..هو أمر لا يحتمله عقل. مجدي، الابن الأكبر لعمي مرهون قال:

- هو سحر قد سحرت به عائلتنا.
- لا بل هو انتقام الهي من عائلتنا، لقد مسخهم الله قرودا بسبب استمرار عمي الرابع (سرحان) بشرب الخمر حتى في رمضان، رد غنام.
- لا لا...لا، إن كان عمي سرحان قد مسخ لأنه قد شرب الخمر في رمضان فما ذنب أبي، وبقية أعمامي.... لا ليس

الأمر بهذا التبيان، لابد أن فعلتهم تتعدى الطغيان، قال آدم ابن عمي نعمان محتجا.

• إن ما يجرى لأبي وإباؤكم هو لابد جزاء ما صنعت أيديهم، فلنحمد الله ونصطبر ونحاول أن لا نفضح أنفسنا أمام الناس وكل الجيران، فما هي إلا أيام ويعودون لسابق عهدهم، طلب محسن بتودد إلى جميع الإخوة وأولاد الأعمام.

انفض تجمعنا وعيوننا ترقب قرودنا التي وجب علينا طاعتها، وتحقيق طلباتها والتودد إليها عسى أن نصحوا في صباح آخر فنجد آبائنا قد عادوا أناسا لا حمرة في عيونهم، لا شعر يغطي جلودهم، ولا تظهر عجيزة كل منهم للعيان.

أيام وأيام والحال بمجمله يسوء، هم لا يصبرون بلا موز، وكل الموز لا يشبعهم، ميزانيات الصرف اتجهت لشراء الموز، إن لم نجلبه لهم فبيوتنا تحال إلى دمار، ووجوهنا تسردها المخالب، ملابسنا تسربلت، الكل يقف خادما لأبيه، في ما مضى كنا نهرب إلى بيوت عمومتنا ونلتجئ إليهم إن خفنا إبائنا، لكننا اليوم لا نجرؤ على الهروب، فكل بيوت أعمامنا من حال بيتنا، وكل أبنائهم بحالنا سواء، رائحتهم كريهة، أصواتهم مزعجة، صراخهم عالٍ لا انقطاع له، وإن تكلموا فكأننا معهم طرشان، لا نفهم منهم شيئا، وكلامهم يطول،

ويطول، و اجتماعك في مجلسهم يعني أن لابد لعجيزة احدهم المقرفة أن تقابل وجهك ساعات من نهار.

سئمنا منهم، فهل تصدقون، وهل يعقل أن يسأم ابن من أبيه، لم يعد يهمنا أمر غير الخلاص منهم:

• لابد من التخلص منهم...، قال زهران .

حاول قسم منا وفشلوا، هرب معظمهم إلى الصحارى والجبال، أما من مسكته الأيادي السوداء فعقوبته كانت أن يرمى من أعلى شجرة تنبت في حديقة الدار .

قالوا أن القردة تخاف النار، النار تطردهم، منعوا النيران، منعوا كل ما يشتعل أو يساعد، لم يبقى إلا أن نحرق أنفسنا، احد أعمامي هرب بعد أن اشتعل ابنه (عزيز) لهبا، وقالوا إن الآخر لم يهرب حتى اشتعل أربعة من أبنائه، سمعنا وسمعنا، أراد أخي أن يحذوا حذوهم، أشعل نفسه، جعلها حريقا يصل حد السماء، ويا لفرحتنا، هرب أبونا، ولى منهزما، فرحنا وغنينا ورقصنا، سميناها ثورة، احتفلنا حتى الصباح، وغفونا فرحين، ثم صحونا فوجدنا دبا يحتل الدار، هو أب الجيران، لما عرف هروب أبونا، قرر أن يتبنانا، أعلن أبوته لنا، هو يحب العسل، و يريدنا أن نجلبه له، لا يشبع أبدا، شرس لا رأفة عنده، يدوس علينا، أعدنا ثورتنا، قتل عدد منا، أشعل اخوين لنا أنفسهم، ويا لدهشتنا، كان الدب يرمي النفط على

المشتعلين، خرجنا نندب حظنا الذي جعلنا جيران لبيتٍ الدب أبوهم، لجأنا إلى اقرب بيت من بيوت عمومتنا نتدبر أمرنا معهم بعد ما هرب أبوهم أيضا، وصلناهم باكين، فوجدنا أكثرهم مغشيٌ عليه، و الكل مرمي خارج الدار، سألنا صاحيهم عن سبب ما حل بهم، عن تركهم الدار، فرد علينا:

• هي رائحة من صار أبونا، إن الدار بها ملئا، لن نحتمل دخولها، أب جارنا صار أبونا، أبونا اليوم هو الضربان.*

---

* الضربان هو حيوان ليلي شرس حاد الطباع ولون جسمه أسود ويوجد بياض يخالطه سواد من بداية جبهته إلى بداية ذيله،ومشهور عنه أنه يهاجم الحيوانات الأكبر منه حجماً كالأغنام و الحمير، يطلق رائحة نتنة كريهة لا تحتمل ليطرد أعدائه، يتواجد في الجزيرة العربية والشام والعراق وإيران والهند و تركمانستان و باكستان..

خادم الملك

ساءني جدا ما لقيت من جواب صديق طفولتي وقريبي (حمدان) الذي تركته بين يدي أصدقائي الخمسة الآخرين، خرجت يدفعني الغضب أهيم في الطرقات، كان يعز علينا أن نتركه ذليلا بين يدي الملك الظالم الذي يستغل حاجته هو ومجموعة من الشباب لمساندته في تثبيت أركان حكمه، أردناه أن يكون معنا، أن يشهد ثورتنا ويكون جزءا منها فلا يحسب بعدها على زمرة حكم انفض زمانها وبدأ وقت حسابها، كان تردده واضحا، حاول معه الجميع:

- نريدك أن تكون معنا.... أن تترك هذا الطاغوت، وتبعد نفسك عنه. ..فتحسب معنا...، قال فهيم.
- كن حراً يا حمدان... لا ترضى بان تكون عبدا يتبع غيره...يرتهن بأوامره. ..نريدك عونا لأهلك وذويك..... اترك هذا الملك الذي يظلم اهلك والجوع يقتلهم، أردف حردان.
- من سيكون الحاكم بعده...، رد حمدان.
- لم نسمي أحداً بعد..، ما يهمنا اليوم هو أن نتخلص منه...

أن نتحـــرر... م ســـنفكر.... وســـنقرر مـــن ســـيكون الحاكم....، قلت موجها كلامي إليه وقد حرت بأسباب سؤاله فيمن سيكون الحاكم بعد الثورة.

• أنا لن أكون معكم الآن.... ثوروا.... وقرروا....وسموا حاكمكم وسأكون حينئذ معكم...، رد حمدان بعد تفكير.

مشيت لا جهة انويها ، تساؤلات عدة تدور في رأسي

• لماذا يتردد حمدان في أن يكون معنا..

• ولماذا هو يتساءل عمن سيكون الحاكم بعد ثورتنا...

• أتراه يفكر في أن نختاره ليكون حاكمنا. ...أن يجعل ثمن انضمامه معنا هو رئاستنا...

• لا... لا لا.. فانا اعرف حمدان...هو لا يفكر أن يكون رأساً في كل أمر يشترك به... هو يعمل دوما ظلا لغيره... يقدم غيره ويعاضده ليكون العقاب ساعة الحساب برقبة من تقدم بينما ينعم هو بخيرات الرياسة التي عاضده عليها.

•نعم هو منطق جبان... أن يختفي خلف غيره. ..ولا فكرة لديه ولا مبدأ.. مبدأه أن يستفيد ممن يعتبرهم ضحايا الغباء.

• فلماذا إذاً يسأل عن حاكم ثورتنا.... هل يعقل أن يوشي به...

أخذني الطريق بعيدا ، مررت بقصر كبير، ايواناته عالية، حدائقه واسعة، تتناثر فيها أشجار مختلفة الأشكال والألوان، يلفها سياج حديدي بنقشات طيور وورود تسمح للمارة برؤية كل ما يحوي بين جنباته، مررت بالقرب من الباب، نباح كلاب يتصاعد، سرّعت بخطواتي، ونظري يتركز بين الأشجار، استطلعت مكان النباح فهالني ما رأيت، وانفطر قلبي لذاك المنظر، الرجل يحمل سوطا ينزله بقوة على ظهر الكلب الذي حبسه داخل قفص، السوط يحدث صريرا مدويا والكلب يعوى صائحا وكأنه يستنجد من ينجيه، الرجل متباهيا بالسوط يعلو وينزل مسرعا و كأنه يعزف لحنا يطرب له جمهور عريض، حاولت أن ابتعد مسرعا، لاحقني صياح الكلب، كان يتوسل، كأنه يناديني، يريد الخلاص، وجدت نفسي ارجع إليه، توقف صاحبه عن ضربه وهو يرمقني.

- هل تبيعه...، وجدت نفسي اعرض عليه.
- لم يجب فقد باغته بسؤالي، كان كأنه يفكر بالعرض..
- هل تبيع هذا الكلب...، أعدت سؤالي.
- نعم... نعم أبيعه. ...خمسون... أريد خمسون ألفا.... هل تقدر على دفعها.

• اقدر...اقدر..، أجبت مسرعا وعيوني تتجه صوب الكلب الذي لازال يعن من الم الضربات.

• أضربه لخطأ أخطأه.... أنا لا أتحمل أي خطأ.... كل ما ترى هنا يعيش وفق نظام... ومن يخطئ يعاقب فورا....، قال لي ويده تؤشر صوب كلاب أخرى تجلس متأهبة على مقربة وكأنه يبرر لي ما رأيت من قسوته تجاه الكلب.

جمعت كل ما في جيبي فما وجدت غير سبع وأربعون ألفا، وعدته أن أكملها خمسين في يوم الغد فوافق على تسليمي الكلب، طاوعني الكلب راكضا فرحا يحتك بأقدامي متملقا بعد أن ربطه لي بحبل يمكنني من السيطرة عليه.

أخذت الكلب والفرحة تملاني، أخيراً استطعت الخروج من شعوري الذي سببه لي حمدان، أردنا تحرير الناس من ملك طاغي، لكن حمدان أخر ثورتنا، وها أنا ذا أحرر مخلوقا من نوع آخر، صحيح انه كلب، لكنه في النهاية نفسا يقتلها الظلم.

ابتعدت عن القصر مسافة كبيرة فتوقفت، نظرت إلى الكلب، كان ينظر إلي متلهفا مستنفرا ينتظر أي إشارة مني، انحنيت إليه و فككت الحبل من حول عنقه.

• أنت الآن حرا... اذهب أنى شئت...لن يعذبك احد بعد اليوم..، كلمت الكلب كما لو انه يفهم ما أقول. وقف الكلب ينظر إلي، كأنه لم يستوعب ما أقدمت عليه، حاولت أن اجعله يمشي فلم يتحرك، نهرته ليذهب متحررا من صاحب القصر، ومني، لكنه بقي مكانه، يئست من حركته فتحركت أنا مبتعدا، لحقني، أسرعت مبتعدا، ركض خلفي، زغت منه في أول طريق صادفني، دخلت في سوق كبير، غبت عن ناظره، تأكدت من إضاعته لي، أحسست براحة كبيرة، عدت إلى البيت وقد زال مني شعور السوء الذي كان مسيطرا علي.

في اليوم التالي ذهبت إلى القصر لأعطي صاحبه الباقي من ثمن الكلب، دخلت من الباب هذه المرة، استقبلني صاحب القصر ملوحا بيده، كان يلهو مع حيواناته المختلفة، اقترب إلي، كلاب تتراكض خلفه تجتهد كي تحتك بأرجله تملقا.

• هل تعرف هذا....؟، قال الرجل وأشار بيده إلى كلب تحته يحتك بقوة، نظرت جيدا، انه نفس الكلب الذي اشتريته البارحة.

• أليس هذا كلبي...؟، قلت سائلا.

• نعم هو كلبك.... لكن قل لي كيف هرب منك... هل فككت قيده.

• نعم...نعم أنا فككت قيده..... حاولت أن اجعله حرا... الحقيقة قد ساءني ما رأيت من معاملتك له، ... فأردت أن اجعله حرا... فأطلقت سراحه بعد أن اشتريته منك.

• هاااه.... الآن فهمت..... لقد عاد الكلب إلي بعد أن عرف انك تتخلى عن أن تكون سيده...

• ولمَ عاد إليك....لمَ لمْ يعش حرا..، سألته مستغربا.

• هو لم يعتد الحياة بلا سيد. ..في هذا الكون مخلوقات كثيرة اعتادت أن تعيش تحت وصاية سيدها.... فإذا ما تخلى عنها احدهم أو مات أو اختفى. ...فهي تسرع لتجد سيدا آخر تنفذ له رغباته.... حريتها في عبوديتها... هي لا يمكنها أن تدبر معيشتها دون أن يكون لها من يفكر مكانها.... هي مجبولة على أن تطيع...وتتملق.... و تعمل بكد وإخلاص. ..لكن أن تفكر، فهذا من أمر سيدها، وعليه يقع عاتقها..... تفضل هذه نقودك خذها طالما أن كلبي قد عاد إليّ.....، مد الرجل يده إليّ بالنقود فاستلمتها منه وأنا أفكر بصديقنا حمدان الذي أجل أمر الانضمام لثورتنا حتى نسمي حاكمنا الجديد.

الفهرس